

الدكتور زاهر عواض الألعوى

# مع المفصّلين والمسئولين

في

زواج النبي ﷺ بزَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشٍ

دراسة تحليلية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الرابعة  
١٤٠٣هـ — ١٩٨٣م

## مقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.. وبعد: فإن صلتى بهذا الموضوع ترجع إلى أكثر من خمس سنوات تقريباً، عندما دار الحديث في جلسة أدبية فكرية.. .. تضم عدداً من ذوى الاتجاهات المختلفة. تكلم أحد الحاضرين فتطرق في حديثه إلى النزعة البشرية ذات الميول والعاطفة، وأن سلطانها قد يعصف بالشخصية القوية عندما يعرض لها منظر تحلاب، أو تستهويها نفحة ساحرة، وأن هذه النزعة البشرية لا يملك ردها كبار الأنبياء مثل ما جرى لمحمد صلى الله عليه وسلم مع زينب، وداود عليه السلام مع زوجة أوريا.. .. وكان الحديث في البداية يدور في موضوعات متنوعة.. .. وكان النقاش يجرى في بعض المفاهيم في جوٍّ من الهدوء والموضوعية. فلما امتد الحديث إلى ساحة الأنبياء وتناول أمراً يتعلق بعصمتهم وكرامتهم لم أجد بُدّاً من الرد بقوة. وتقاطعنا الحديث وارتفع صوت أحد الحاضرين قائلاً: أنت أعلم بأحوال الأنبياء وتاريخ حياتهم من ابن جرير الطبرى؟ فدهشت لهذا السؤال حقاً، وقلت: لا، بل ابن جرير الطبرى أعلم، ولا داعى للموازنة بينى وبين هذا العملاق، فهو إمام المفسرين ثم لم أجد هذا الجواب كافياً فذهبت ألومه وألوم نفسي على السؤال والجواب معاً، وأقول كما قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره

إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

فقال المتحدث: إذن ارجع إلى ما نقله ابن جرير الطبرى في تفسيره في قصة زواج النبي (صلى الله عليه وآله) من زينب وأسباب ذلك.. .. تجد أن الرسول (صلى الله عليه وآله) جاء يوماً من الأيام إلى بيت زيد بن حارثة فلم يجده ووجد زوجته

زينب بنت جحش وهى فى زينتها فوق حبها فى قلبه (عليه صلى الله)... إلخ..  
وقد ذكر الطبرى فى تاريخه هذه القصة كما ذكر أيضاً قصة داود  
مع زوجة أوريا وأنها أعجبتة فأكمل بها المائه... إلخ..

وجميع المصادر التاريخية وكتب التفسير تحدثت عن هذا  
الموضوع فلا داعى لتجاهل الحقائق التاريخية.

وقد عجبت لذلك المنطق والتفكير بأن هذا الامر لم يكن فكرة  
مستحدثة ولا طعنا فى عصمة الأنبياء، وإنما هو نقل لما سطر فى  
كتب التفسير والتاريخ قبل ألف سنة.

وتمشياً مع قواعد البحث لم أجد بدأً من السير على القاعدة  
القائلة «إن كنت ناقلاً فالصحة وإن كنت مدعياً فالدليل» وقد أحالنى  
فى مراجعة الموضوع إلى عدة مصادر، كتفسير ابن جرير الطبرى  
وتاريخه، وتفسير البغوى، والكشاف للزمخشري، وطبقات ابن سعد،  
وغيرها من مصادر التفسير والتاريخ.

وانتهت الجلسة وفى نفس شئ من الحيرة والدهشة. ذهبت أتابع  
الموضوع بالبحث والدراسة.

فاستعرضت معظم المصادر التاريخية وأمهات كتب السنة،  
واطلعت على مجموعة من كتب المستشرقين..

وحاولت دراسة الاسانيد التى نقلها ابن جرير الطبرى وغيره مما له  
صلة بهذا الموضوع فى ضوء ما رسمه علماء الجرح والتعديل.

وخرجت من هذه الدراسة بفكرة واضحة المعالم عن الأخبار التى  
رويت فى زواج النبي (عليه صلى الله) بزینب وأن معظمها دخيل على التراث  
الإسلامى، وقد تلقفها المستشرقون وعملوا على نشرها وترويجها. وكان  
ورود هذه الأخبار فى المصادر التاريخية فى التراث الإسلامى تكأة  
للحاقدين على الإسلام لكى يشوهوا الحقائق التاريخية وينالوا من كرامة

رسول الإسلام محمد (ﷺ).

ولقد عشت مع الآيات الكريمة التي تحدثت عن زيد وزينب، وعن زواج النبي (ﷺ) بها، بعد أن طلقها زيد، كما هو واضح في سورة الأحزاب، وحاولت تجنب جميع الروايات الواردة في ذلك في البداية. وقمت بدراسة نص الآية مرة بعد أخرى فلم أستطع أن أفهم منها ما يخالف نصها الصريح ومدلولها الواضح البين الذي سنبينه عند دراسة الآية، ولولا ما أدخله الضعفاء والمدلسون من مثل هذه الروايات الساقطة ما خطر ببال مطلع على الآية الكريمة شئ مما يرمون إليه من دعوى حب النبي (ﷺ) لزينب وتأثره عند رؤيتها.

وقد جمعت كل ما توصلت إليه في كتاب وسميته:

(مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي (ﷺ) من زينب بنت جحش).

وهو دراسة تحليلية لأبعاد الموضوع من جوانبه المختلفة. جمعت في هذا الكتاب حصيلة طيبة من أقوال العلماء، وهي محاولة للوصول إلى الحقيقة صيانة لكرامة الأنبياء، وبياناً لعصمتهم كما دلت عليه قواعد الشريعة، ووقائع الأحداث. والله أرجو أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم — فهنيئاً حسبنا ونعم الوكيل.

الدكتور

زاهر بن عواض الألمعي

جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية

بالرياض



## زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزینب — بإيجاز — فى صورته الصحيحة.

ظاهرة التبنى كانت شائعة بين العرب فى الجاهلية واستمرت فى أول الإسلام حتى أراد الله إلغاء تلك الظاهرة المضرة بكيان الأسر وما يتبعها من خلافات فى الموارث والنزاعات الأسرية، فأنزل الله تعالى فى إبطال التبنى قوله:

«ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ..» (١) كما قصد الإسلام إذابة الفوارق الطبقيّة بين الناس وإقامة العلاقات الأسرية على أساسها الصحيح، فألهم الله نبيه (ﷺ) أن يخطب زينب بنت جحش — وهى من أشرف قريش — لمولاه زيد بن حارثة رضى الله عنه، ووافقت زينب على ذلك لاعتبارات سنذكرها فيما بعد، فتزوجها زيد ومكثت عنده ما يقرب من سنة (٢). وكان زواج زيد بن حارثة بزینب بنت جحش بمنزلة التمهيدي لإلغاء التبنى، كما كان كسراً لعنفوان النزعات الطبقيّة، ثم نشأت بينهما خلافات لم يطبقا معها تحمل الحياة الزوجية، وقد استشار زيد رسول الله (ﷺ) فى طلاق زينب وأوضح له بعض الأسباب الداعية إلى ذلك فأشار عليه رسول الله (ﷺ) بأن يمسك زوجته، علماً بأن الله تعالى قد أخبر رسوله عليه السلام بأن زينب ستكون من أزواجه بعد أن يطلقها زيد، ولكن رسول الله (ﷺ) كان يستحى من إظهار ذلك إذ لم يأمره الله بإظهاره، كما كان يخشى أن يقول المنافقون: تزوّج محمد بزوجة ابنه بالتبنى، وكان يرجو من الله تعالى أن يعفيه من هذا التكليف ولكن «كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا».

(١) سورة الأحزاب الآية ٥

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٩١



ثم صمم زيد علي مفارقة زوجته زينب فطلقها، وبعد انقضاء عدتها تزوجها رسول الله (ﷺ) لحكمة تشريعية «لكي لا يكون علي المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً» وقد ذكر الله تعالى هذه القصة في كتابه العزيز فقال جل شأنه: «وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه، فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون علي المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً» (١).

وكان زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بزينب في ذى القعدة من السنة الخامسة من الهجرة (٢) في أشهر الأقوال، كما سنوضحه فيما بعد.

هذه لمحة سريعة عن زواج النبي (ﷺ) بزينب ؛ وستحدث عن ذلك بشيء من التفصيل والبيان ان شاء الله.

### أخطاء بعض المفسرين في زواج النبي (ﷺ) بزينب:

نقل بعض المفسرين أخباراً في أسباب زواج النبي (ﷺ) من زينب بنت جحش، منها الصحيح الذي يتفق مع نصوص القرآن الكريم وصحيح السنة، ومنها ما يتعارض مع القرآن الكريم ويتناقض مع الواقع التاريخي والمنطق العلمي الصحيح لسير الأنبياء، وقد تساهل بعض المفسرين في إثبات بعض الراويات البعيدة عن منطق الوقائع وروح الآيات القرآنية.

(١) الأحزاب آية ٣٧ (٢) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٢١٨

ولقد أثار هذا الخلط في الروايات مزاعم ينفر منها الحق ويأبأها الواقع، ثم جاء خصوم الإسلام فتلقفوا هذا التخليط وضموه إلى ما أخذهم التي يحاولون بها إثارة الغبار حول نزاهة رسول الله (ﷺ)، لقد دس المنافقون على زواج النبي (ﷺ) من زينب أباطيل كثيرة، ومن عجب أن سجّل بعض المسلمين هذه الأباطيل في كتبهم كقولهم: إن النبي (ﷺ) جاء إلى بيت زيد بن حارثة زوج زينب بنت جحش فلم يجده وعرضت عليه زينب أن يدخل فأبى وانصرف راجعا وهو يقول كلاما لم تفهم منه زينب سوى قوله: (سبحان مقلب القلوب).

فلما عاد زيد أخبرته بما كان فمشى إلى رسول الله (ﷺ) فقال له: بلغني يارسول الله أنك جئت إلى منزلي فهلا دخلت لعل زينب أعجبتك فأفارقها؟ فقال له النبي (ﷺ): «أمسك عليك زوجك واثق الله» لكن زيدا عجز عن إمساكها فطلقها، فتزوجها النبي (ﷺ) بعد أن استوفت عدتها.

وفي خبر آخر من أخبار القصاص أن النبي (ﷺ) أتى بيت زيد فرأى زينب جالسة وسط حجرتها تسحق طيباً، فلما نظر إليها قال: «سبحان خالق النور»<sup>(١)</sup>، تبارك الله أحسن الخالقين»، فرجع. فلما جاء زيد أخبرته الخبر فقال لها: لعلك وقعت في قلب النبي (ﷺ) فهل لك أن أطلقك حتى يتزوجك فقالت: أخشى أن تطلقني ولا يتزوجني: فجاء زيد إلى رسول الله (ﷺ) فقال له: أريد أن أطلق زينب فأجابه بقوله: (أمسك عليك زوجك واثق الله).

وهذه الأخبار وأمثالها مما يجب تنزيه النبي (ﷺ) عنها، ومن الغريب جداً، أن تردّ هذه الروايات في كتب الأئمة الأعلام، كابن جرير الطبري، وابن سعد، والبغوي والرازي وغيرهم، وهي أخبار ساقطة

(١) انظر تفسير الطبرسي ج ٢٢ مجلد ٦ ص ١٤٣

متهافته سنداً وامتناً. ولكي تكون الحقائق واضحة جليّة فإنني سأورد بعض النصوص من هذه الروايات الدخيلة في تفسير ابن جرير الطبري وطبقات ابن سعد، تلك الروايات التي كانت تكأة للمبشرين والمستشرقين لبث سمومهم وأحقادهم على رسول الله (ﷺ)، ثم أعقب على تلك الروايات بدراسة أسانيدھا ونقدھا حسب مادونه علماء الجرح والتعديل في علوم الحديث.

وإليك ما رواه ابن جرير الطبري في تفسيره حيث قال رحمه الله عند قوله تعالى (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ) ما نصه:

«وذلك أن زينب بنت جحش فيما ذُكِرَ رآها رسول الله (ﷺ)، فأعجبهته وهي في حبال مولاه فألقى في نفس زيد كراهيتها لما علم الله مما وقع في نفس نبيه فأراد فراقها فذكر ذلك لرسول الله (ﷺ) زيد فقال له رسول الله (ﷺ): «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ» وهو يحب أن تكون قد بانت منه لينكحها.

١ — حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه) وهو زيد أنعم الله عليه بالإسلام) وأنعمت عليه) أعتقه رسول الله (ﷺ) (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ) قال: كان يخفي: ودَّ أنه طلقها.

٢ — حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال ابن زيد) كان النبي (ﷺ) قد زوج زيد بن حارثة زينب بنت جحش ابنة عمته فخرج رسول الله (ﷺ) يوماً يريد على الباب ستر من شعر فرفعت الريح الستر فانكشف، وهي في حجرتها حاسرة فوقع إعجابها في قلب النبي (ﷺ) فلما وقع ذلك كرهت إلى الآخر، فجاء فقال: يا رسول الله إنني أريد أن أفارق صاحبتى قال: مالك أراك منها شيء؟ قال: لا والله ما رآني منها شيء يا رسول الله ولا رأيت إلا خيراً، فقال رسول الله (ﷺ): (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ)، فذلك قوله تعالى: «وَإِذْ تَقُولُ

للذی أنعمَ اللهُ عليه وأنعمتَ عليه أمسكُ عليكَ زوجكَ واتفقَ اللهُ وتُخفى في نفسك ما اللهُ مُبديه» وتُخفى في نفسك إن فارقها تزوجتها.

٣- حدثنا خَلَادُ بنُ أسلم قال حدثنا بن عيينة عن علي بن زيد ابن جدعان عن علي بن الحسين قال: كان اللهُ تبارك وتعالى أعلم نبيه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن زينب ستكون من أزواجه فلما أتاه زيد يشكوها قال أتق اللهُ وأمسك عليكَ زوجك؛ قال اللهُ: (وتُخفى في نفسك ما اللهُ مُبديه) انتهى (١).

أما رواية ابن سعد فقد صدر بها حديثه عن زواج النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بزينب بعد أن أورد رواية قصيرة في خطبتها على زيد بن حارثة، قال ابن سعد:

(أخبرنا محمد بن عمر قال حدثني عبد الله بن عامر الأسلمي عن محمد بن يحيى بن حبان قال: جاء رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بيت زيد بن حارثة يطلبه وكان زيد إنما يقال له زيد بن محمد فربما فقد رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الساعة، فيقول: أين زيد؟ فجاء منزله يطلبه فلم يجده وتقوم إليه زينب بنت جحش زوجته فضلاً (٢) فأعرض رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عنها فقالت: ليس هو ههنا يارسول الله فادخل بأبي أنت وأمي، فأبى رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن يدخل وإنما عجلت أن تلبس لما قيل لها: رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) على الباب فوثبت عجلي فأعجبت رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فوَلَّى وهو يهمهم بشئ لا يكاد يفهم منه إلا سبحان مصرف القلوب.. الخ) (٣).

وقد أورد الطبري في تاريخه هذه القصة بسنده المرفوع إلى محمد بن يحيى بن حبان (٤).

(١) تفسير الطبري ج ٢٢ مجلد ٢٢ - ٢٥ ص ١٣ ط مصطفى الحلبي عام ١٣٧٣هـ.

(٢) أى متبدلة في ثياب مهنها؛ يقال: تفضلت المرأة إذا لبست ثياب مهنها، أو كانت في ثوب واحد كما في (النهاية) لابن الأثير ج ٣ ص ٤٥٦، ط عيسى الحلبي.

(٣) طبقات ابن سعد . ٨ ص ١٠١ بتصرف يسير.

(٤) انظر تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٣.

## نقد الروايات التي أوردها ابن جرير الطبري وابن سعد

١ — بالرجوع إلى السند الأول عند الطبري وهو قوله: حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة.. الخ.

نستطيع أن نرد هذا السند من وجهين:  
الأول: أن الحديث مقطوع لأن السند انتهى إلى قتادة ولم يصرح بأن قتادة رواه عن أحد من الصحابة. ومثل هذه الأمور تحتاج في قبولها إلى السند الصحيح المتصل.

الثاني: أن في السند سعيد بن أبي عروبة وكان كثير التدليس<sup>(١)</sup> واختلط، وروايته عن قتادة معنعة، والمحدثون يردون رواية المدلس إذا عنعنها لأنهم يعتبرون الرواية سقط منها بعض الرواة ما بين المدلس وشيخه الذي صرح باسمه في السند، وإذا كان مجموعة كبيرة من المحدثين قد وثقوا سعيد بن أبي عروبة فهذا التوثيق قبل أن يختلط؛ ولهذا قال أبو حاتم فيه: هو قبل أن يختلط ثقة، قال أبو داود: كان وكيع يقول: كنا ندخل على سعيد فنسمع، فما كان من صحيح حديثه أخذناه وما لم يكن صحيحاً طرحناه. وقال الأزدي: اختلط اختلاطاً قبيحاً، وقال النسائي: من سمع منه بعد الاختلاط فليس بشئ<sup>(٢)</sup>.  
وبهذا يحكم على الرواية بعدم الثبوت.

٢ — أما السند الثاني عند الطبري وهو حدثنا يونس أخبرنا ابن وهب قال ابن زيد... الخ.

فإن هذا السند يرد من وجوه ثلاثة:

(١) انظر تقريب التهذيب ج ١ ص ٣٠٢

(٢) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ٦٤، ٦٥

الأول: أن ابن وهب المذكور هو عبد الله بن وهب المصري كان مدلساً؛ قال عنه ابن سعد: عبد الله بن وهب كان كثير العلم ثقة فيما قال حدثنا، وكان يدلّس.

وقال النسائي: كان يتساهل في الأخذ ولا بأس به.

وقال الساجي: صدوق ثقة وكان من العباد. وكان يتساهل في السماع لأن مذهب أهل بلده أن الإجازة عندهم جائزة، ويقول فيها حدثني فلان (١)

على كل حال فقد وثّقه كثير من العلماء، فلا يقدر في روايته التي صرح فيها بالتحديث: فأما ما لم يصرح فيها بالتحديث كهذه الرواية التي نحن بصدد الحديث عنها فإنها لا تقبل لاحتمال وجود بعض الرواة المجهولين في السند.

الثاني: أن ابن زيد — وهو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي ضعيف. ووضعه الإمام أحمد، وقال البخاري وأبو حاتم: ضعفه على ابن المديني جداً. وتكلم في حديثه غير واحد من علماء الجرح والتعديل (٢).

وقد عرفت أن عبد الله بن وهب المصري أخذ هذا الحديث عن عبد الرحمن بن زيد هذا وهو على هذه الدرجة من الضعف فيكون السند غير صحيح، وسواء روى ابن وهب حديثه صراحة عن ابن زيد أو عن غيره فإن الرواية غير مقبولة لما تعرضت له من القوادح.

الثالث: أن السند منقطع ولم يتصل إلى أحد من الصحابة. ومثل هذا يكون رأياً شخصياً في الرواية التاريخية ولا يقوم عليه بناء صحيح.

٣— أما السند الثالث وهو حدثنا خلاد بن أسلم قال حدثنا سفيان

(١) تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٨٣ — ٨٤

(٢) انظر طبقات المفسرين للداودي ج ١ ص ٢٤٥. وانظر تهذيب التهذيب ج ٦ ص ١٧٨

ابن عيينة عن علي بن زيد بن جدعان عن علي بن الحسين.. الخ.  
فإنه وإن كان فيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف<sup>(١)</sup> إلا أن  
الترمذى الحكيم قد أطب في تحسين هذه الرواية وقال: إنها من  
جواهر العلم الممكنون<sup>(٢)</sup>.

ويمكن قبول هذه الرواية لأنها تتفق مع المنطق السليم في سيرة سيد  
المرسلين (ﷺ).

واحسن من هذه الرواية ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق السدى  
ولفظه: (بلغنا أن هذه الآية — يعنى قوله تعالى «وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا لِلَّهِ  
مُبْدِيهِ .. الخ» الآية — نزلت في زينب بنت جحش وكانت أمها أميمة  
بنت عبد المطلب عمه رسول الله (ﷺ) وكان رسول الله (ﷺ) أراد  
أن يزوجه زيد بن حارثة مولاه فكرهت ذلك ثم إنها رضيت بما صنع  
رسول الله (ﷺ) فزوجها إياه ثم أعلم الله عز وجل نبيه (ﷺ) بعد  
أنها من أزواجه فكان يستحي أن يأمر زيدا بطلاقها وكان لا يزال يكون  
بين زيد وزينب ما يكون من الناس فأمره رسول الله (ﷺ) أن يمسك  
عليه زوجه وأن يتقى الله، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوج  
امرأة ابنه وكان قد تبنى زيدا).

وقد أثنى الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح البارى<sup>(٣)</sup> على رواية  
السدى هذه فقال: وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق  
السدى فساقها سياقاً واضحاً حسناً، ثم عقب على الرواية السابقة التي  
أثنى عليها الترمذى الحكيم، فقال: وكأنه — أى الترمذى الحكيم —  
لم يقف على تفسير السدى الذى أورده وهو أوضح سياقاً وأصح  
إسناداً إليه لضعف علي بن زيد بن جدعان، ثم قال الحافظ بن حجر

(١) انظر طبقات ابن سعد ج ٧ ص ٢٥٢ (٢) انظر فتح البارى ج ٨ ص ٥٢٤

(٣) ج ٨ ص ٥٢٣ — ٥٢٤

رحمه الله: (ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري ونقلها  
كثير من المفسرين لا ينبغي التشاغل بها، والذي أوردته منها هو  
المعتمد) (١).

\*\*\*

---

(١) فتح الباري ج ٨ ص ٥٢٤





## نقد روايات ابن سعد

أما الطعن في الرواية التي أوردها ابن سعد فإنه يتأتى بأمور ثلاثة:—  
١— أنها رواية مرسلة فمحمد بن يحيى بن حبان تابعي مدني فقيه يروى عن عمه واسع ورافع بن خديج وأنس وغيرهم، وروى عنه الزهري، ويحيى بن سعيد الأنصاري، ومالك، والليث وآخرون، وكانت وفاته سنة إحدى وعشرين ومائة<sup>(١)</sup>.

٢— أن محمد بن عمر الواقدي الذي أخذ ابن سعد عنه هذه الرواية ليس مرضياً عند علماء الحديث، قال زكريا بن يحيى الساجي:..  
محمد بن عمر الواقدي قاضي بغداد مُتَّهَم.

وقال البخاري: الواقدي مدني سكن بغداد متروك الحديث تركه أحمد وابن المبارك وابن ثُمير ، وقال: أكذبه أحمد.  
وقال يحيى بن معين: ضعيف ليس بشئ يقبل الحديث<sup>(٢)</sup>.

٣— أن عبد الله بن عامر الأسلمي الذي روى عنه محمد بن عمر ضعيف الحديث، قال عنه أحمد وأبو زرعة وأبو عاصم والنسائي: ضعيف، وقال أبو حاتم: متروك، وقال ابن معين: ضعيف ليس بشئ، وقال البخاري: يتكلمون في حفظه، ذاهب الحديث، وقال ابن حبان: كان يقبل الاسانيد والمتون ويرفع المراسيل<sup>(٣)</sup>.

وإذاً فلا تصح هذه الرواية لاسناداً ولا متناً، ولا يصح أن يشاد عليها بناء من الوهم أو الضلال يتناول به على مقام النبوة<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٥٠٨

(٢) تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٣٦٣، وانظر ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٦٦٢ — ٦٦٦

(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر ج ٥ ص ٢٧٥ — ٢٧٩

(٤) انظر كتاب منهج السنة في الزواج للدكتور/محمد الأحمدى أبو النور ص ٢٩٤

ولقد تناقل كثير من المفسرين والباحثين هذه الآثار المدخولة ودونها في كتبهم جاعلين عهدة الصحة على الناقل الأول، فالإمام البغوي رحمه الله تعالى على جلاله قدره يورد في تفسيره رواية منسوبة إلى ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى (وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ) قال: أي حب زينب وهي في عصمة زيد<sup>(١)</sup>.

وأورد فخر الدين الرازي في تفسيره هذه الآثار ولم يردّها<sup>(٢)</sup>، كما ساقها أيضاً الزمخشري في تفسيره حيث قال ما نصه:

(أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) يعني زينب بنت جحش رضي الله عنها وذلك أن الرسول صلى الله عليه وآله أبصرها بعد ما أنكحها زيدا فوقع في نفسه فقال: سبحان مقلب القلوب.. إلخ.

وابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى لم يتحرر من هذه الروايات الدخيلة في كتابه الكافي، أو الداء والدواء، حيث جاء فيه عند حديثه عن العشق ما نصه: وهذا سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين صلى الله عليه وآله نظر إلى زينب بنت جحش رضي الله عنها فقال: سبحان مقلب القلوب، وكانت تحت زيد بن حارثة مولاه، فلما هم بطلاقها قال له: اتق الله وأمسك عليك زوجك ثم قال: وهذا داود نبى الله عليه السلام كان تحته تسع وتسعون امرأة ثم أحب تلك المرأة وتزوجها وأكمل بها المائة<sup>(٣)</sup>.

وأنت ترى أن هذا الكلام يخدش كرامة الأنبياء وأنه من الإسرائيليات التي يجب أن تطهر منها كتب الإسلام وأن يعاد النظر في كثير منها وبخاصة ما يتعلق بعصمة الأنبياء وأمور العقائد الأساسية، ومن الإنصاف أن نبيّن رأى الإمام ابن القيم في كتابه زاد المعاد لأنه

(١) تفسير البغوي على هامش تفسير الخازن ج ٥ ص ٢١٥

(٢) انظر تفسير فخر الدين الرازي ج ٢٥ ص ٢١٢

(٣) الجواب الكافي ص ٢٦٤ — مطبعة أنصار السنة المحمدية.

يختلف تماماً عما دونه في كتابه الجواب الكافي حيث قال في (زاد المعاد) في علاج النبي (ﷺ) للعشق قال ما نصه:

«وأما ما زعمه بعض من لم يقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم حق قدره من أنه ابتلى به في شأن زينب بنت جحش وأنه رآها فقال سبحان مقلب القلوب فأخذت بقلبه وجعل يقول لزيد أمسكها حتى أنزل الله عليه (٣٢ - ٣٣) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ). فظن هذا الزاعم أن ذلك في شأن العشق وصنف بعضهم كتابا في العشق وذكر فيه عشق الأنبياء وذكر فيه هذه الواقعة وهذا من جهل هذا القائل بالقرآن وبالرسل وتحميلة كلام الله ما لا يحتمله ونسبته رسول الله (ﷺ) إلى ما برأه الله منه..» الخ (١).

فأنت ترى أن كلام ابن القيم رحمه الله تعالى في زاد المعاد أحسن وهو مخالف لرأيه الذي أورده في الجواب الكافي، ويمكن الاعتماد على قوله في (زاد المعاد) لأنه أصح نسبة إليه. وقد يكون رأيه في هذه المسألة رأياً سابقاً أورده في الجواب الكافي، ثم رجع في زاد المعاد عن ذلك ملتزماً منهج التحقيق، ومهما يكن فإن الروايات المدخولة في قصة زواج النبي (ﷺ) بزینب لا تزال مبثوثة في كتب التفسير والسير يأخذ بها ذوو الغفلة من المسلمين ويجادل عنها من لا يعرف عصمة الأنبياء ولا يقيم للحقائق التاريخية وزناً، وربما أطلق بعض المُجَّان في

(١) زاد المعاد ج ٤ ص ٢٦٦ طبع مؤسسة الرسالة.

وصف النبي (ﷺ) هذه الكلمة (النبي العاشق) فكأن زواج النبي (ﷺ) بزینب جاء نتيجة لغرام سابق فأسدلوا على هذه القصة ستاراً من الخيال وضروباً من التصورات التي تخدش كرامة النبوة وعصمة الأنبياء، وحاشا رسول الله (ﷺ) من ذلك الميول العاطفي. وسأبين الحقائق في زواج النبي بزینب بنت جحش مُدعمةً بالأدلة العقلية والنقلية إن شاء الله تعالى.

### استغلال بعض المستشرقين لهذا:

دأب كثير من المستشرقين على تشوية الحقائق الإسلامية وتلقف الأخبار الضعيفة والموضوعة المبعثرة في كتب التراث الإسلامي والعمل على إظهارها ونشرها، وبالرغم من أن المحققين من علماء الإسلام قد تصدوا لتلك الروايات وصدفوا الكتب والمجاميع في الأحاديث الموضوعية فقد بقيت بعض الآثار من الإسرائيليات والأخبار الضعيفة متفرقة في طيات الكتب.

وكانت رسالة الاستشراق والتبشير تفرض على المستشرقين والمبشرين محاربة الإسلام والنيل من قداسته، والحط من مكانة رسول الإسلام العظيم (ﷺ) عن طريق تلك الروايات الضعيفة أو المكذوبة، فلجأوا إلى تلمس الشبه وإثارة الشكوك. ولا ريب أن ما دونه بعض المسلمين في كتبهم من أخبار وقصص معظمها من الإسرائيليات، وما وضعه الوضاعون وتناقله القصاصون حتى راج بين الناس قد كلف علماء الإسلام المحققين ثمناً باهظاً من مؤونة البحث والتدقيق وتصنيف كتب الجرح والتعديل ليواجهوا تلك التيارات الزاحفة المدسوسة في التراث الإسلامي.

وقد وضعوا، رحمهم الله تعالى، للباحثين قواعد البحث ومناهج التدقيق في مصادر الأخبار وأحوال الرواة.

وإذا استعرضنا بعض ما كتبه المستشرقون حول زواج النبي (ﷺ) بزینب وجدنا كتاباتهم تميل إلى تصوير هذا الزواج بصورة سفاح الأقارب — كما يسميه بعضهم — وأفاضوا على القصة ضرباً من الخيال تعكس تأثرات محمد (ﷺ) عندما رأى زينب وكانت بيضاء جميلة وأطلقوا لأقلامهم العنان حتى صوروا رسول الله (ﷺ) بالرجل الشهواني الذي يستحوذ على قلبه وكيانه جمال النساء ومظاهر الزينة ومتع الحياة.

وأذكر على سبيل المثال بعض أقوال المستشرقين فيما يلي:  
يقول المستشرق «إميل درمنغم» في كتابه (حياة محمد) ترجمة عادل زعير يقول ما نصه: «شعر محمد بالعقد الأخير من عمره بميل كبير إلى النساء... ودخل محمد ذات يوم بيت زيد بن حارثة بعد الفراغ من غزوة بني النضير وكان زيد في ذلك اليوم غائباً عن بيته فوجد محمد نفسه تجاه زوجة زيد زينب بنت جحش التي كانت أجمل فتيات قومها. وكانت زينب هذه آنثى سافرة وشبه عارية وعاملة على زينتها وإدارة بيتها، فأثر هذا الجمال السافر الغض الفياض في نفس النبي فقال: سبحان مقلب القلوب، ولم ينطق بغير هذه الكلمة وانصرف حالاً. قصت زينب ما رأت على زوجها زيد فارتبك كثيراً، وكان زيد المخلص لمحمد المنعم عليه يعلم مزاجه المتقد وبدأ الوضع محيراً إلى الغاية (١)».

هكذا يقول المستشرق درمنغم. مع أنه يعتبر إلى حد كبير من المعتدلين في الكتابة عن حياة محمد (ﷺ) إذا قورن بغيره من المستشرقين.

(١) حياة محمد لإميل درمنغم ترجمة عادل زعير ص ٢٩٩

ولا يقف الحد عند هذا في تهجمات المستشرقين ونفت سموهم فيما يتعلق بزواج الرسول (ﷺ) بل يتعدى إلى أبعد من ذلك فيتهمه بعضهم بأنه كانت له علاقات غير شرعية مع بعض النساء فيقول المستشرق «مونتجومرى وات» في كتابه (محمد في المدينة): «ونعلم من بعض الوثائق أن محمداً بالإضافة إلى زيجاته الشرعية واتصالاته بالجواري كانت له علاقة مع نساء أخريات وذلك حسب النظام الأسمى القديم» (١).

ويقول «مونتجومرى وات» في مكان آخر ما نصه: «وقد ذهبت — أى زينب — إلى المدينة مع إختوها، وزوجها محمد بالرغم عنها من ربيبه زيد بن حارثة وقد ذهب محمد فيما بعد حوالى السنة الرابعة للهجرة (٦٢٦م) إلى بيت زيد للتحدث إليه وكان زيد غائبا فشاهد زينب وهى عارية فأحبها كما يقولون لتوه فمضى وهو يقول لنفسه سبحان الله مقلب القلوب» (٢).

ويقول المستشرق الدكتور «غوستاف لوبون» فى كتابه (حضارة العرب) بعد ثنائه على محمد صلى الله عليه وسلم بصفاته الحميدة ما نصه: «وضعف محمد الوحيد هو حبه الطارئ للنساء وهو الذى اقتصر على زوجته الأولى حتى بلغ الخمسين من عمره، ولم يخف محمد حبه فقد قال: (حُبِّبْ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثَ) (٣). الطيب والنساء وجعلت قرّة

(١) محمد فى المدينة: ترجمة شعبان بركات ص ٤٣٤

(٢) المصدر السابق ص ٥٠٢

(٣) قال الحافظ العراقى فى أماليه: لفظ «ثلاث»، ليست فى شئ من كتب الحديث، وهى تفسد المعنى، وقال الزركشى: لم يرد فيه لفظ «ثلاث» وزيادتها مخلة للمعنى، فإن الصلاة ليست من الدنيا. وقال ابن حجر فى تخريج الكشاف: لم يقع فى شئ من طرقه، وهى تفسد المعنى، إذ لم يذكر بعدها إلا الطيب والنساء، ثم إنه لم يصفها لنفسه، فما قال: أحب تحقيراً لأمرها، لأنه أبغض الناس فيها، لا لأنها ليست من دنياه، بل من آخرته كما ظن، إذ كل مباح دنيوى ينقلب طاعة بالنية، فلم يبق للتخصيصه حينئذ وجه، ولم يقل: من هذه الدنيا، لأن كل واحد منهم ناظر إليها، وإن تفاوتوا فيه: وأما هو فلم يلتفت إلا إلى ما ترتب عليه مهم ديني محبب إليه.

عيني في الصلاة) ولم ييال محمد بسن المرأة التي يتزوجها؛ فتزوج عائشة وهي بنت عشر سنين وتزوج ميمونة وهي في الحادية والخمسين من سنها وأطلق محمد العنان لهذا الحب حتى إنَّه رأى اتفاقاً زوجة ابنه بالتبني وهي عارية فوقع في قلبه منها شئ فسرحتها بعلمها ليتزوجها محمد فاعتم المسلمون فأوحى إلى محمد بواسطة جبريل الذي كان يتصل به يومياً آيات تسوِّغ ذلك وانقلب الانتقاد إلى سكوت<sup>(١)</sup>...

وهذا الكلام لا يحتاج إلى تعليق لأنها نعمة استشراقية مكشوفة وكتب المستشرقين مملوءة بهذه النزعات المنحرفة كما هو واضح في أقوال موير، ومرجليوث، وأرفنج واشنطن، وسبرنجر، وغيرهم.

إن الحركة الاستشراقية تعمل بنشاط وجهد متصل في سبيل بلوغ أهدافها أياً كانت وبأى لون من ألوان المظاهر الحركية وهي تملك من الوسائل ما تستطيع أن تظهر به أمام الناس بمظهر الباحث المتجرد الراغب في المعرفة، ونحن لا ننكر ما قدموه في سبيل البحث العلمي وما أسهموا به في نشر العلوم الإنسانية غير أنهم عندما يأتون للقضايا الإسلامية يخبطون فيها خبط عشواء ويقدمون لها تفسيرات تصطدم مع الحقائق الإسلامية الصحيحة وتخالف المنطق السليم الذي يتفق مع وقائع الأحداث ومجريات الأمور، من هنا نشأت الفجوة بين أرباب الفكر الإنساني، وعليه فإنه لا بد من الإنصاف والتجرد من الأهواء عند ما يعرض الباحث للقضايا الفكرية أو يتطرق (للأيدولوجيات) المختلفة حتى يكون رأيه معقولاً ومقبولاً في الأوساط العلمية والفكرية.

\*\*\*

= ومنهم من العلماء، وزاد لفظ «ثلاث» الزمخشري والقاضي. وهذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في كتاب الزهد، والنسائي، والحاكم، والبيهقي في السنن، عن أنس بن مالك، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، وقال الحافظ العراقي: إسناده جيد، وقال ابن حجر: حسن. انظر: فيض القدير للمناوي: ج ٣ ص ٣٧٠ - ٣٧١، ط الأول ١٣٥٦ هـ، ١٩٣٨ م، القاهرة.

(١) حضارة العرب ترجمة عادل زعيتير ص ١١٢





## كيف أدخلت هذه الأخبار المدسوسة في التراث الإسلامي

من المعلوم أنها تكونت مدارس للتفسير في زمن الصحابة والتابعين وتداولت تلك المدارس مجموعة من التفسير بالمأثور المنسوب بعضه إلى النبي (ﷺ) والمنسوب كثير منه إلى الصحابة كابن عباس وابن مسعود وعلى بن أبي طالب وابن عمر وغيرهم. وأكثره منسوب إلى التابعين كمجاهد وقتادة ومسروق والحسن البصري وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم كثير، ولكن تلك المجموعة من التفسير بالمأثور اختلط ببعضها كثير من الإسرائيليات مما يشوه أحيانا جمال التخريج ويفسد أحيانا التأويل، وقد يدخل أعداء الإسلام في هذا الباب كثيرا من الأوهام المضللة.

ويظهر أن ابتداء دخول الإسرائيليات في تفسير القرآن الكريم كان عندما أراد بعض الصحابة والتابعين الاستشهاد بما عند النصارى واليهود مما يصدق ما جاء به النبي (ﷺ) ليلزموا خصومهم الحجة من واقع ما يعتقدونه ويعترفون به كما فعل النبي (ﷺ) عندما احتكم إليه اليهود في أمر الزنا فسألهم عما عندهم في التوراة وفتحوها فإذا آية الرجم تلوح (١).

ويروى في ذلك أن عبد الله بن عمرو بن العاص قد أصاب يوم وقعة اليرموك التي فتحت الشام بعدها في عهد الفاروق رضى الله عنه أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب فكان يتحدث منهما بما فهمه ولا شك أنه ما كان يحدث بما فيهما إلا مؤيدا للدين مستشهداً للإلزام والقطع والاحتجاج عليهم وما كان يأخذ منهما متزيداً على الإسلام أو يأتي بما

(١) انظر فتح الباري ج ١٢ ص ١٦٦

يغاير ما جاء به النبي (ﷺ) لاسيما أنه وجد هاتين الزاملتين والفاروق  
عمر يحمل درته ويكوى بها ظهر من يفسد أمر هذا الدين أو يتزيد على  
أقوال سيد المرسلين، ولكن ما إن مضى زمن قليل حتى راجت هذه  
الإسرائيليات ولم تعد مقصورة على الاستشهاد بل كانت للتأويل  
والتخريج والتفسير وتحميل القرآن ما ليس منه، ومن هنا وجد كثير من  
أعداء الإسلام الثغرات التي ينفذون منها إلى إفساد معاني القرآن الكريم  
وإدخال بعض التفسيرات التي تحيل المعنى وتجنح بالآيات إلى مسaire  
أهواء المضللين...

\*\*\*

## يوحنا الدمشقي

ومن الذين حملوا راية التضليل والدس على الإسلام وإلقاء الشبه يوحنا الدمشقي الذي وجد في عهد عبد الملك بن مروان وكان اسمه العربي (منصور). وهذا الرجل هو الذي دس أول فرية مما يتناقله الناس بعده من أن النبي (ﷺ) عشق زينب بنت جحش ؛ فقد ذهب إلى تأويل قوله تعالى (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ...) إلخ الآية أن معنى الآية أن النبي (ﷺ) رأى زينب زوج زيد في حال أثارت عشقه فعشقتها وأراد زواجها، دس ذلك النصراني هذه الفرية وراجت بين تابعي التابعين أنفسهم حتى جاءت على لسان قتادة منسوبة إليه، وقبلها ابن جرير الطبري ونقلها عنه غيره، فكانت بلا شك أعظم فرية، وهي تجافي نسق الآية وخلق النبي (ﷺ). ولم يثبت في الصحاح شئ من هذا ولم ينسب هذا التخريج لأحد من الصحابة بطريق مقبول.

ونحن إذا تتبعنا كتابات المستشرقين ومكايد المبشرين رأينا صوراً عجيبة؛ فهم يتحدثون بكل صراحة أنهم يعملون على هدم أسس العقيدة الإسلامية وأن السلطات الكنسية شرعت تهاجم بالجدل والمناظرات أسس العقيدة الإسلامية بأسلحة فكرية عن طريق انتشار الثقافات والعلوم بما تحمله من الدس والشبهات.

والثقافات التي تغزو المجتمعات هي في الحقيقة جيش غير منظور فالمستشرق البروفسر «الفريد غيوم» في مقال له بعنوان (الفلسفة وعلم الكلام) (١) يقول ما نصه (.. ويمرور الزمن أسلم الكثير من اليهود والنصارى تملصاً من الجزية التي كانت تجبي من الموحدين وأهل الكتاب من غير المسلمين، فهؤلاء الذين دخلوا كنف الدين حملوا

(١) تراث الإسلام، تأليف جمهرة من المستشرقين بإشراف سير توماس أرنولد ص ٣٦٤

معهم ثقافة الأمبراطورية البيزنطية وثقافة اليونان، هذه الانشقاقات الواسعة أفزعت السلطات الكنسية فشرعت تهاجم بالجدل والمناظرات أسس العقيدة الإسلامية... ثم يستطرد قائلاً فالقديس يوحنا الدمشقي<sup>(١)</sup> كان يستطيع أثناء مناظرته إفحام مناظريه المسلمين ببراہین تأتيه مطوعة مستسلمة... إلخ).

كان يوحنا وأمثاله يجادلون بحرارة ويستدلون بالإسرائيليات، فإذا وجدوا الفرصة سانحة دسوا ما يريدون دسه على المسلمين وربما اتخذوا من الروايات الإسرائيلية التي تقول إن داود عليه السلام أحب زوجة قائده (أوريا) وأنه عمل على التخلص منه حتى قتل فتزوجها داود بعده، ربما عملوا مقارنات ومعادلات بينها وبين ما زعموه في قصة زواج النبي (ﷺ) بزینب.

ولقد راجت تلك الإسرائيليات عند بعض التابعين الذين ذكرناهم ممن لهم عناية بالتفسير حتى إن كبار المحدثين كمالك رضى الله عنه كان يتشكك في بعض روايات التفسير عن قتادة، فكان لا يروى عنه في التفسير ولا يروى عن روى عن قتادة في التفسير.

ثم جاء المفسرون في القرن الثالث وما بعده الذين دونوا التفسير في مجموعات علمية فوجدوا تلك الثروة التي تركها التابعون من الروايات النقلية في التفسير ووجدوا مجموعة كاملة منسوبة لابن عباس رضى الله عنهما. ولكن تلك التركة العظيمة قد اختلط بها بعض ما يجب تنقيته منها؛ اختلط بها إسرائيلييات غير معقولة في ذاتها، وبعضها مخالف للمقررات الإسلامية، وبعضها زيادات لا صلة لها بالدين ولا تربطها بالإسلام رابطة ولا تجمعها به جامعة فوقوا أمام هذه المجموعة فريقيين: فريق اقتصر على الآثار لم يعدّها إلا قليلاً، وعلى رأس هؤلاء إمام

(١) يوحنا الدمشقي (٨١-١٣٧هـ - ٧٠٠ - ٧٥٤م).

المفسرين ابن جرير الطبري فهو ينتقى من هذه المجموعة ما يراه أنسب للقرآن وأقرب إلى اللغة العربية الصحيحة وما يتفق مع جملة المأثور عن النبي (ﷺ) من أحوال وأعمال وأقوال وما عرف من هذا الدّين بالضرورة ولم يتقيد في الرواية بما قيد المحدثون به أنفسهم من تحرى السند تحرياً دقيقاً بل تساهل قليلاً في ذلك وشدد في انتقاء المروى نفسه ومع ذلك دخل عليه بعض الخلط الإسرائيلي أو المدسوس كما رأينا في قصة زيد وزينب.

وفريق فسروا على طريقة السلف واجتهدوا في انتقاء الرواية وحاولوا دراسة الأسانيد بالطرق المناسبة في الجملة وإن لم يتقيدوا تقيداً مطلقاً بنقد الرواية في الحديث النبوي من هؤلاء البغوي وابن كثير وبخاصة ابن كثير رحمه الله فقد عني بالنقد والفحص أكثر من غيره؛ ولذلك رد كل روايات ابن جرير في قصة زيد وزينب؛ فهو يقول في تفسيره عند هذه القصة ما نصه: قال الله تعالى (وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير ههنا آثراً عن بعض السلف رضى الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها (١) وإذا كانت أقوال السلف ومن اتبعوا طريقهم ونقلوا عنهم قد اختلط بها أقوال إسرائيلية كثيرة فإن هناك علماء آخرين اتجهوا إلى التفسير معتمدين على السنة النبوية الصحيحة الثابتة صحتها وأقوال الصحابة الثابتة نسبتها وأضافوا إلى ذلك بحثهم وفهمهم للقرآن في ضوء ما يؤدي إليه أسلوبه العربي المستقيم والمأثور من لغة العرب، وتفنن بعضهم في دراسة بلاغة القرآن وتحرى مواضع الإعجاز فيه وأسرار بلاغته ودلائل إعجازه (٢) وقد بدأ ذلك في القرن الرابع الهجري.

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٩١

(٢) انظر مناهج التفسير لأبي زهرة لواء الإسلام العدد الثامن السنة الخامسة ص ٥٠٣

وإذا كان يوحنا وأحزابه وكثير من أعداء الإسلام قد حملوا رايات التشكيك والدرس على الإسلام في لباقة فائقة فإنهم لم يكونوا في الميدان وحدهم، بل ظهرت حركات هدامة قام بها بعض الشعوبيين في القرنين الثالث والرابع حيث كانوا يحاولون هدم الإسلام وتقويض أركانه وتشويهه بكثير من الدسائس والمقالات.

وآية الأحزاب في شأن قصة زيد وزينب هي السند الأوثق والمستلهم الأقوى لمن تأمل نصوص القرآن وتديرها بنظرة استقلالية مجردة عن المؤثرات الخارجية. وسأوضح هذا عند مناقشة الموضوع في ضوء الآية الكريمة وإيراد القصة على وجهها الصحيح إن شاء الله.

### تبيين المحققين من علماء الإسلام لهذه الأخبار الدخلية

ذكرنا فيما تقدم أن مجموعة من المفسرين سلكوا طريق التحقيق فيما ينقلونه من الأخبار وأنهم وضعوا ذلك في ميزان الجرح والتعديل، ومن هؤلاء الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى، وتقدم قوله في الرويات التي عرضت لقصة زواج زيد وزينب وأنه ضرب عنها صفحا لعدم صحتها.

كما كان رأى الإمام الزهري فيما رواه عنه عمر بن قائد قال: (نزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ) يعلمه أن الله يزوجه زينب بنت جحش فذلك الذى أخفى فى نفسه..<sup>(١)</sup>.

وكذلك رأى القاضى بكر بن العلاء القشيري كما نقله عنه القرطبي<sup>(٢)</sup>.

(١) تفسير القاسمي محاسن التأويل ج ١٣ ص ٤٨٦٩

(٢) انظر تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٩٠ - ١٩١

وقال الإمام أبو بكر بن العربي في شأن هذه القصة وأن الرسول (ﷺ) رأى زينب فوق في قلبه حبها... الخ قال: إنه لا يصح وأن الناقلين له المحتجين به على مزاعمهم في فهم الآية لم يقدروا مقام النبوة حق قدره ولم تصب عقولهم من معنى العصمة كنهها.

ثم قال: وقد مهدنا لك روايات كلها ساقطة الأسانيد وإنما الصحيح منها ما روى عن عائشة أنها قالت: لو كان النبي (ﷺ) كاتماً شيئاً من الوحي لكتّم هذه الآية (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه) يعني بالإسلام (وأنعمت عليه) فأعتقته (أمسك عليك زوجك) إلى قوله (وكان أمر الله مفعولاً) وأن رسول الله (ﷺ) لما تزوجها — أي زينب — قالوا تزوج حليمة ابنه فأنزل الله (ما كان محمدٌ أباً أحدٍ من رجالكم) الآية، وكان رسول الله (ﷺ) تبناه وهو صغير فلبث حتى صار رجلاً يقال له زيد بن محمد فأنزل الله (ادعوهم لإبائهم هو أقسط عند الله) قال القاضي: وما وراء هذه الرواية غير معتبر، فأما قولهم: (إن النبي (ﷺ) رآها فوقت في قلبه فباطل..)(١).

ولقد تابع المحققون من المفسرين رفضهم لهذه الروايات بالنقد والرد واعتبروها دخيلة على الإسلام.

فالإمام القرطبي مع أنه أورد معظم الروايات في تفسيره رجح ما روى عن الحسين بن علي من أن الله أعلم رسوله (ﷺ) بأن زينب ستكون من أزواجه وأنه أخفى ذلك حياء وهو الذي كان يخفى في نفسه — (ﷺ) — حيث قال القرطبي (..وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين).

كما رجح العلامة الألوسي في تفسيره (٢) ما روى عن الحسين أيضاً ورد تلك الروايات الساقطة.

(١) أحكام القرآن لابن العربي ج ٣ ص ١٥٣١

(٢) تفسير الألوسي ج ٢٢ ص ٢٣ — ٢٤ المطبعة المنيرية.



وكذلك عمل العلامة جمال الدين القاسمي في كتابه محاسن التأويل ونقل كلاماً جيداً في هذا الموضوع (١).  
وغير هؤلاء كثير من المفسرين والباحثين المسلمين.

### الإتجاهات الفكرية التي أثّرت حول زواج النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بزَيْنَب

ماذكرته في الفقرات السابقة يعطى صورة لتباين الإتجاهات الفكرية في زواج النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بزَيْنَب، ولكنني هنا أريد أن أعرض لهذا الموضوع عن طريق المقارنة والاستقراء لتلك الإتجاهات الفكرية. ويمكن تصنيف تلك الإتجاهات إلى مايلي:

الاتجاه الاستشراقي، والاتجاه بإمكان الحب كعاطفة بشرية، والاتجاه السلبي، والاتجاه التحقيقي.

#### ١-الاتجاه الاستشراقي الحاقدا على الإسلام:

ويتمثل هذا فيما أثاره المستشرقون ودونوه في كتبهم ونشراهم الدورية؛ وقد تقدمت أقاويلهم المزيفة.

ومن الإنصاف أن يذكر للمستشرق «مونتجومري وات» بعض الأقوال المعتدلة إلى حد ما وإن كان عليها بعض المآخذ لعدم فهمه لِلْحَكْمِ التَّشْرِيْعِيَّةِ التي قصدها الإسلام في هذا الزواج.

يقول في موضع آخر من كتابه «محمد في المدينة»: (ليس من المبالغة القول بأن جميع زيجات محمد كان لها هدف سياسي.. لنا الحق إذن في القول بأن محمداً في قصة زينب بنت جحش لم يذهب ضحية حب عنيف بل رأى بوضوح الفوائد السياسية لهذا الزواج... ثم يقول.. وبالرغم من القصص العاطفية، من البعيد أن يكون محمد قد أُسِرَ بمفاتن زينب الجسدية (٢).

(١) انظر محاسن التأويل ج ١٣ ص ٤٨٦٤ - ٤٨٧٧

(٢) انظر محمد في المدينة ص ٥٠٤ - ٥٠٥

٢-الاتجاه بإمكان الحب من النبي(ﷺ) ، كعاطفة بشرية مع كبحه جماح شهوته:

لقد تساهل بعض العلماء القدامى فى التحقيق فى جوانب العصمة النبوية، وطغت عليهم بشرية الرسول(ﷺ) ، وما ورد فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى:

«قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ...» (١).

وقوله تعالى:

«قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» (٢).

وفات بعضهم التمييز بين بشرية الرسول(ﷺ) ومقامات الشخصية التى جعله الله عليها، وهىأ بها لتحمل أعباء الرسالة الخالدة، وبين البشرية العادية التى تؤثر فيها مظاهر الحياة وتجنح بها عواصف الزينة ومتع الحياة.

فالرسول(ﷺ) بشر، ولكن مقومات شخصيته ورعايتها منذ الصغر تختلف فى جوهرها وتكوينها، فقد أعده الله إعداداً خاصاً مشمولاً بكثير من العناية الربانية، لكى تتناسب شخصيته ومقامه الكريم، مع عظمة رسالته الخالدة، ولهذا نقول: إن المؤثرات الخارجية فى نفس رسول الله(ﷺ) من الحب والعاطفة البشرية تتمشى تماماً مع ما أباحه الله له وجعل فيه خيراً له ولأمته؛ فقد كان يحب نساءه، وكان يحب عائشة أكثر من غيرها من نساءه وهذه الفطرة البشرية العامة يستوى فيها رسول الله(ﷺ) وغيره، لأن مثل هذا الحب مما أباحه الله تعالى، بل جعله من أصل الفطرة البشرية، فقال: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) (٣).

(١)سورة الكهف - ١١٠ (٢)سورة الإسراء ٩٣

(٣)سورة الروم آية ٢١

ولكن العاطفة المنحرفة لا يُتصوّر صدورُها من رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مع أنه بشر، لأن هذا يخالف بعض مقتضيات رسالته، كقوله جل وعلا:

«وَلَا تُمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» (١).

إذا عرفنا هذه المقدمة فإن بعض العلماء والكتاب المعاصرين يخطئون كثيراً عندما يتصورون صدور هذه العاطفة من رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عند رؤيته لزینب، وأذكر على سبيل المثال من الكتاب المعاصرين مقالة الدكتورة بنت الشاطي في كتابها «نساء النبي» (٢).  
فالدكتورة بنت الشاطي وهي ترد على الدكتور «هيكل» في كتابه «حياة محمد» الذي هاجم فيه المستشرقين والمبشرين لما نقلوه وروّجوه من قصص كاذبة، وروايات دخيلة على الإسلام في شأن زواج النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بزینب.

ترد عليه وتنقده بأدب فتقول: (... ولست أدري ما الذي أنكره الدكتور هيكل منها — أي قصة زینب — حتى اندفع يردّها إلى مفتریات المستشرقين والمبشرين الذين أضفوا عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصة غرام ووله» ثم تقول: «وعند الدكتور هيكل أن زواج الرسول من زینب لم يدفع إليه ميل ولا عاطفة وإنما أراد أن يأتمر بحكم الله فيما أبطل من الحقوق المقررة والتبني والادعاء.» واستطردت قائلة: «وما أنبله من ردّ لولا أن قصة إعجاب الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بزینب وحكاية السّر من الشعر الذي رفعته الريح وانصراف الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن بيت زيد وهو يقول: سبحان مقلب القلوب، قد كتب قبل أن تسمع الدنيا

(١) سورة طه آية ١٣١

(٢) نساء النبي لعائشة عبد الرحمن بنت الشاطي ص ١٣٥ — ١٤٥

بالحروب الصليبية بأقلام نفر من مؤرخي الإسلام ورواة السيرة لا يرقى إليهم اتهام بعداء النبي (ﷺ) والدس على الإسلام.»  
ومن الحق أن ندع المستشرقين والمبشرين من أمثال موير، ومرجليوث، وأرفنق وسبرنجر، لنقرأ القصة على مهل في تاريخ الطبري وفي الإصابة، وفي كتب التفسير وفي السمط الثمين أفينكر على بشر رسول أن يرى مثل زينب فيعجب بها؟.

وماذا يطلب من مثله في سمو خلقه وعفة ضميره أكثر من أن يشيح بوجهه عن أعجبه وهو يسبح باسم الله العظيم مقلب القلوب؟.  
هذا ملخص وجهة نظر عائشة بنت الشاطي في ردها على الدكتور «هيكل» وهي ترى أن العاطفة تحركت واثرت بالفعل من رسول الله (ﷺ) عندما رأى زينب في حالة مثيرة.

ومستمسك الدكتورة بنت الشاطي في رأيها أمران:  
الأول: أنه بشر وما يجري في الفطر البشرية يجري على النبي (ﷺ) ولكنه عفيف النفس طاهر الضمير.

الثاني: أن هذه القصة رويت عن مجموعة من المفسرين والمؤرخين قديماً وهم لا يهتمون بعداء النبي (ﷺ) والدس على الإسلام.  
ولي هنا وقفة يسيرة لمناقشة الدكتورة بنت الشاطي في رأيها هذا فأقول: أما كون الرسول (ﷺ) بشراً فلا ينازع في هذا منازع، وكونه يجري عليه من العواطف البشرية ما يجري على غيره، فهذا الكلام فيه إجمال، وقد ذكرت سابقاً أن عاطفة الرسول (ﷺ) عاطفة بشرية سامية تتفق مع عظمة رسالته؛ فميوله (ﷺ) وهواه تبع لما توحى به شريعة الله، ولا يتصور صدور العاطفة المنحرفة التي تشين كرامته (ﷺ)، بل هو المثل الأعلى في سمو النفس وعفة الضمير وفي كل معنى من معاني السمو الانساني، أما كون هذه الروايات وردت في كتب التفسير والسير فهي المشكلة التي أعدنا من أجلها

هذه الدراسة، لأن هذه الروايات كانت تكأة للمبشرين والمستشرقين على مر العصور، وكونها وردت في كتب هؤلاء الأئمة لا يمنع من تمحيصها وعرضها على موازين التحقيق لاسيما إذا كانت تتصل بالعقيدة أو لها مساس بكرامة الأنبياء، ولا يلزم من كون هذه الروايات وردت في كتبهم وهي مناقضة لبعض الحقائق العلمية أن يكونوا متهمين بعباء الرسول (ﷺ) أو الدس فيه، فهم بعيدون كل البعد عن هذا الاتهام، بل هم أئمة هدى وقادة فكر، ولكننا قد بينا فيما سبق كيف أدخلت هذه الروايات في التاريخ والتراث الإسلامي، وأن الروايات المدسوسة قد تدخل بعض الأحيان على بعض كبار العلماء ثم يتناقضها الرواة من بعده وتنتشر في أوساط الناس مما يصعب معه التنبه لها إلا بعد حين.

وما قررته بنت الشاطي في توجيه القصة على العاطفة والميل النفسي يمكن قبوله فيما لو كانت القصة صحيحة، ولكن هذه القصة لا تقوم على أساس صحيح، فلماذا الأخذ والرد في قصة متهافتة تشبه الخيال وكأننا لا نعرف موازين الأخبار وتمحيصها وفق ما قرره علماء الإسلام من أهل الجرح والتعديل.

فاعترض بنت الشاطي على الدكتور «هيكل» في نظري في غير محله ونظرتها ليست بعيدة عن نظرات المستشرقين في هذه القضية وإن كان لها بعض الآراء الجيدة في كثير من المواقف الأخرى. وهناك كاتب إسلامي آخر تعرض للقصة أيضا وكان موفقا إلى حد كبير غير أنه رجع فعلق على الموضوع بما يوحي باقتناعه بالآثار الواردة في هذه القصة، وقبوله لهذه الآثار لا يعفيه من مسئولية هذا الاتجاه، مع أنه رجل فاضل وكاتب إسلامي قدير وهو الدكتور «محمد سعيد رمضان البوطي» وقد ذكر في كتابه «كبرى اليقينيات» رؤية النبي (ﷺ) لزئب وهي في عصمة زيد حيث قال مانصه «.... وربما

أبصرها خلال هذه المدة ذات يوم فتحرك قلبه نحوها فأشاح بوجهه قائلاً بينه وبين نفسه «سيحان الله مقلب القلوب» فقد ذكرت روايات شيئاً من هذا القبيل، ولست أدري ماهو هذا الذي يدعو إلى التخرج من قبول هذه الرواية أو استشكالها أو الوقوف عندها؟ ماذا من الشبهة أو الإشكال في أن يريد الله أن يزوج رسوله (ﷺ) من مطلقة متبناه لحكمة تشريعية معينة فيهيئ لذلك سبيله الإنساني المعروف»<sup>(١)</sup> ثم قال في التعليق في الهامش على هذا الكلام: «أقول هذا الكلام لمن رأى أن يتمسك بهذه الرواية التي أشرنا إليها ويعتبرها رواية صحيحة اتباعاً لما رواه الطبري والنيسابوري وذكره البيضاوي وابن الجوزي لنوضح له أنها على فرض كونها صحيحة لا تصلح معتمداً لبث أي نقيصة في جانب رسول الله (ﷺ). وقد ضعفها جمع كبير من علماء الحديث وأئمة التفسير ومنهم القرطبي وابن كثير.

ونحن قد آثرنا ألا نضرب صفحاً عن الروايات الأخرى التي ساقها الطبري وآخرون كما يرى البعض، بل أحياناً أن نكشف عن عصمة سيدنا (ﷺ) عما يرميه به طائفة من المستشرقين وأرباب الغزو الفكر حتى على فرض صحتها فهي لا تزيده (ﷺ) إلا رفعة في الخلق وسموا في الجانب..... الخ<sup>(٢)</sup>».

ونحن لا نرى هذا المنهج يحقق الغاية في اعتقاد عصمة رسول الله (ﷺ). وكلام الدكتور البوطي يوهم بأن بعض العلماء قد صحح الروايات التي تقول بميل رسول الله (ﷺ) القلبي إلى زينب وهي في عصمة زيد، انظر إلى قوله: (..لمن رأى أن يتمسك بهذه الرواية التي أشرنا إليها ويعتبرها صحيحة اتباعاً لما رواه الطبري والنيسابوري... الخ).

(١) كبرى اليقنيات الكونية - ص ٢٢٥ - ٢٢٦

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٥ - ٢٢٦

والحقيقة أنه لم يقل أحد من العلماء المعتمدين بصحة تلك الروايات، بل على العكس نعتوها بأنها دخيلة مدسوسة على التراث الإسلامي، ولا حجة في ورود هذه الروايات في كتب العلماء الكبار كابن جرير الطبري وغيره، لأننا قد ذكرنا أن هؤلاء الأئمة نقلوها عن غيرهم وتركوا العهدة في صحة النقل على غيرهم، ولم يتعرضوا لها بالتصحيح أو الإبطال، وهذا من المآخذ التي تؤخذ عليهم في عدم التحري الدقيق عند نقل بعض الأخبار الإسرائيلية، وإن كان هذا مخالفاً لما عهد عنهم من التحري والضبط في كثير من المواقف، ولكن سبحان من له العظمة والكمال المطلق و«كفى المرء نبلاً أن تُعدَّ معائبه».

### الاتجاه السلبي أمام هذه الأخبار:

يتمثل هذا الاتجاه في المنهج الذي سار عليه بعض المفسرين وأصحاب السير في الإكثار من نقل الإسرائيليات وغيرها من الأخبار الضعيفة دون الالتزام بعهدة الصحة والتحقيق فيما يوردون في كتبهم، فربما نقلوا عن غير قصد بعض الأخبار وهي في نفسها لاتحمل طابع الصحة ولم يظهر لهم منها وقت تدوينها ما يتنافى مع الحقائق العلمية، وخاصة ما درج منها على ألسنة الرواة كأخبار مجيء النبي (ﷺ) إلى بيت زيد وتأثره عند رؤيته زينب، وقد رويت هذه الأخبار وتركت كما هي دون تعقيب عليها بالصحة أو الفساد ممن نقلها في بداية الأمر، الأمر الذي جعل المتأخرين ينقلون هذه الروايات معتمدين على مجرد ورودها في كتب الأقدمين.

وهذا المنهج قد ترك أثراً كبيراً في الاتجاهات الفكرية وبالأخص الفكر المعاصر حيث نشطت الحركة الاستشراقية وتلاقحت الأفكار في معترك الصراع الفكري مما جعل هذا الموضوع يشغل حيزاً كبيراً من كتابات المستشرقين التي لقيت رواجاً في أوساط المثقفين بصرف النظر عما تحمله من معاول الهدم والتخريب للأخلاق والمعتقدات.. ولستُ بصدد إيراد الأمثلة ومناقشة الموضوع من زوايا الفكرية المعقدة، وإنما قصدتُ تبيان الآثار التي تركها ذلك الاتجاه السلبي أمام أخطر دسيسة يُعْمَزُ بها جانب النبوة، وينفذ منها إلى تشوية الحقائق التاريخية للسيرة العطرة التي تحلى بها سيد المرسلين ورسول رب العالمين محمد (ﷺ)، وقد ذكرت فيما سبق أن ممن تأثر برواية تلك الأخبار الدخيلة إمام المفسرين ابن جرير الطبري دون قصد فارجع إليه إن شئت.

وسأذكر فيما يلي مجموعة من أصحاب هذا الاتجاه على سبيل

المثال:

١ — محمد بن سعد: أورد هذه الروايات في كتابه الطبقات الكبرى<sup>(١)</sup>، وقد أوردت بعض هذه الروايات كما تقدم في هذا الكتاب<sup>(٢)</sup>.

٢ — ابن جرير الطبري: روى هذه القصة في تفسيره<sup>(٣)</sup> وفي تاريخه<sup>(٤)</sup>، وساق الروايات التي تعرضت للقصة ولم يعقب عليها بشئ، وهو غير ملوم فيما نقله لأنه كان ناقلاً، بيد أنه يؤاخذ على إيراد تلك الروايات مجردة عن النقد العلمي لاسيما وهو على درجة كبيرة من الإمامة في الدين.

(١) انظر الطبقات ج ٨ ص ١٠١ — ١٠٢

(٢) انظر ص ١٢ — ١٣ من هذا الكتاب.

(٣) انظر تفسير الطبري ج ٢٢ — ٢٥ ص ١٣

(٤) انظر تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٣ ط مصر.



وقد أوضحنا لك أسباب وقوعه دون قصد في تلك الروايات الدخلية.

٣ — الزمخشري: أورد الزمخشري في تفسيره (الكشاف) مانصه: «..أبصر النبي (ﷺ) زينب بعد ما أنكحها إياه — يعني زيدا فوَقعت في نفسه فقال: سبحان الله مقلب القلوب... الخ» (١).

٤ — الإمام البغوي: ذكر في تفسيره مضمون تلك الروايات فقال ما نصه: في قوله تعالى: (وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيَةً)، قال: أي حب زينب وهي في عصمة زيد.... الخ (٢).

٥ — الإمام فخر الدين الرازي: ذكر هذا المعنى في تفسيره دون تعقيب عليه حيث قال في قوله تعالى: (وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيَةً). من أنك تريد الزوج بزینب (٣).

٦ — الإمام الشوكاني في تفسيره فتح القدير، قال مانصه: (وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيَةً) وهو نكاحها إن طلقها زيد، وقيل: حبها (٤)، على أن هؤلاء الأئمة الأعلام لم يكن لهم قصد سيء قطعاً في تدوين هذه الأخبار الدخيلة في كتبهم، ولكن نقلوها كأى خبر من الأخبار، وفاتهم التمهيط والتحقيق في هذه القصة الخطيرة، وإذا كان هذا الخطأ قد وقع منهم دون عمد أو حساب لما ينطوى عليه من مفسد، فإن لهم من المواقف الحميدة والتحقيق العلمي في مختلف القضايا العلمية ما يجعلهم أئمة هدى وقادة فكر، وهذه هفوة لا تقاس بجانب مالهم من السابقة والفضل.

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٢٦٢ ط الحلبي.

(٢) تفسير البغوي على هامش الخازن ج ٥ ص ٢١٥

(٣) انظر تفسير الفخر الرازي ج ٢٥ ص ٢١٢

(٤) فتح القدير ج ٤ ص ٢٨٤

## «الاتجاه التحقيقي»

وهناك ثلثة كبيرة من علماء الإسلام تفتنوا لمثل هذه الأخبار وعرضوها على موازين الجرح والتعديل، ورمقت أبصارهم ما تنطوى عليه من مداخل خطيرة لا تليق بمقام الأنبياء، فأثار الله بصائرهم لكشف النقاب عن هذه الآثار الدخيلة، وعرفوا المداخل التي نفذ منها أعداء الإسلام حتى وضعوا مثل تلك القصص الخيالية بقصد الإساءة إلى التراث الإسلامي، بل إلى رسول الإسلام نفسه. وأذكر بالفضل والإكبار بعض هؤلاء الأئمة الذين تصدوا لتلك الأخبار وكشفوا عنها أستار الدس والتدليس وهم:

- ١ — الإمام الزهري<sup>(١)</sup>.
  - ٢ — القاضي بكر بن العلاء القشيري<sup>(٢)</sup>.
  - ٣ — الإمام أبو بكر بن العربي<sup>(٣)</sup>.
  - ٤ — الإمام الحافظ ابن كثير.
  - ٥ — الإمام القرطبي.
  - ٦ — العلامة: جمال الدين القاسمي.
  - ٧ — العلامة: الألوسي.
  - ٨ — الشيخ: محمد عبده.
  - ٩ — الدكتور/ محمد حسين هيكل.
  - ١٠ — الشيخ محمد الغزالي.
- وغيرهم من علماء الإسلام المحققين.

(١) انظر تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٩١ وتفسير القاسمي ج ١٣ ص ٤٨٦٩

(٢) انظر تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٩١

(٣) انظر أحكام القرآن ج ٣ ص ١٥٣٠ — ١٥٣٢

وهؤلاء كانت آراؤهم واضحة في هذه القضية، وكان لهم فضل التنبيه وإيقاظ الفكر الإسلامي للتصدي لكل دسيسة يراد منها النيل من قداسة رسول الله (ﷺ) أو تشويه الحقائق التاريخية في تراث الإسلام. هذا ملخص الاتجاهات الفكرية فيما أثير حول زواج النبي (ﷺ) بالسيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها.

ونحن الآن بصدد العرض لزواج النبي (ﷺ) بزينب، وأسبابه، والأحوال التي جاءت بين يدي هذا الزواج، ولكن المدخل إلى ذلك سيكون عن طريق معرفة زواج زيد بن حارثة رضي الله عنه بزينب لارتباط الزوجين من بعض الوجوه، وما دار في زواج زيد بزينب من ملاسبات أدت في النهاية إلى طلاق زينب.

ولكن يجدر بنا ونحن نتحدث عن زيد بن حارثة على أنه مولى لرسول الله (ﷺ) أن نعرف أنه عربي الأصل واللسان، وذلك عن طريق نبذة يسيرة عن حياته فيما يلي:

نسبه : قال الحافظ بن حجر العسقلاني في الإصابة:

هو زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى بن زيد بن امرئ القيس بن عامر بن النعمان بن عامر بن عبود بن عوف بن كنانة ابن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب بن وبرة الكلبى (١).

وأورد ابن سعد نسب زيد في الطبقات بصورة أطول من هذا حيث أضاف على النسب المتقدم(.. وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة — واسمه عمرو وإنما سمي بقضاعة لأنه انقضع عن قومه — ابن مالك بن عمرو مرة بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان(..) (٢).

(١) الإصابة ج ٨ ص ٤٦ وسيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٧

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ٤٠ ط صادر

وعلى هذا يرجع نسب زيد بن حارثة إلى القبائل القحطانية فهو إذن  
عربي الأصل والمنشأ.  
أما أمه فهي: سعدى بنت ثعلبة بن عبد عامر بن أفلت بن سلسلة  
من بني معن من طيء<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

---

(١) الطبقات لابن سعد ج ٣ ص ٤٠



## زيد بن حارثة

كانت الغارات الجاهلية قبل الإسلام تسير على قدم وساق فكان بعض القبائل العربية يغير على بعض يسلبون وينهبون ما بدا لهم دون وازع يردعهم، وإنما الحكم لمن غلب. وكان اختطاف زيد بن حارثة من بين أحضان أمه أثراً من تلك الآثار الجاهلية الهوجاء.

ولاشك أن هذه الغارات كانت تحدث ذعراً واضطراباً بين الناس، ولقد قضى الإسلام على هذه الغارات والنعرات الجاهلية فأصبح المسافرون يسيرون في ظله العادل مسافات طويلة لا يخافون شيئاً على أموالهم وأنفسهم، وتلك ثمرة من ثمار إقامة المجتمعات على منهج الشريعة الإسلامية العادلة، أما قصة اختطاف زيد، فقد ذهبت أمه سعدى بنت ثعلبة لتزور أقاربها وأخذت معها ابنها زيد بن حارثة ليسعدها ويعيش مع أخواله ساعات ممتعة.

وبينما هي في أسعد لحظاتها وهي مجتمعة مع أقاربها وأحبائها إذ أغارت عليهم قبيلة على عادة العرب في الجاهلية فاختطفت زيداً. يقول ابن سعد في طبقاته ما يلي:

«زارت سعدى أم زيد قومها وزيد معها فأغارت خيل لبني القين بن جسر في الجاهلية فمروا على أبيات بنى معن رهط أم زيد، فاحتملوا زيداً إذ هو يومئذ غلام يفعة قد أوصف فوافوا به سوق «عكاظ» فعرضوه للبيع فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي لعتمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم»<sup>(١)</sup>. هذه رواية ابن سعد في الطبقات:

(١) طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٤٠ - ٤١

وهناك رواية أخرى عند ابن هشام تشير إلى أن زيد بن حارثة جئ به من الشام إلى الحجاز، وبعض المصادر التاريخية تقول إن زيداً بيع في سوق «حباشة» وهي من أسواق العرب وزيد يومئذ ابن ثمانية أعوام<sup>(١)</sup>. وسوق (حباشة) المذكور كان من أسواق العرب في الجاهلية وهو سوق تهامة القديم، وسوق أخرى كانت لبني قينقاع<sup>(٢)</sup>.

أما رواية ابن هشام فإنها تقول: (... وكان حكيم بن حزام ابن خويلد قدم من الشام برقيق فيهم زيد بن حارثة وصيف فدخلت عليه عمته خديجة بنت خويلد وهي يومئذ عند رسول الله (ﷺ) فقال لها: اختارى يا عممة أى هؤلاء الغلمان شئت فهو لك، فاخترت زيداً فأخذته فرآه رسول الله (ﷺ) عندها فاستوهبه منها فوهبته له فأعتقه رسول الله (ﷺ) وتبناه وذلك قبل أن يوحى إليه...<sup>(٣)</sup> وعلى كل حال فإن أشهر الروايات لا تختلف في أن حكيم بن حزام هو الذى اشتراه وأعطاه خديجة بنت خويلد بقيمة أو هبة، وشذ الإمام محب الدين الطبرى فقال: (إن رسول الله (ﷺ) اشترى زيداً فى الجاهلية بعكاظ...)<sup>(٤)</sup>.

ولقد ذهب والد زيد وأعمامه للبحث عنه كما حزنتم أمه حزناً شديداً على فقدانه. وقد قال والد زيد شعراً يعبر فيه عن أحاسيسه وآلامه تجاه ابنه المفقود فقال أبياتاً نقتطف منها ما يلى:

بَكَيْتُ عَلَى زَيْدٍ وَلَمْ أُدْرِ مَا فَعَلَ  
أَحْيَى فَيُرْجَى أَمْ أَتَى ذُونَهُ الْأَجَلُ

(١) انظر الروض الأنف للسهيلى ج ١ ص ٢٨٦

(٢) انظر القاموس المحيط ج ٢ ص ٢٦٧، ومعجم البلدان لياقوت الحموى ج ٢ ص ٢١١

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٤٧

(٤) السمط الثمين ص ٢٢٥ ط حلب.

فَوَ اللّهِ مَا أَدْرِي وَإِنْ كُنْتُ سَائِلًا  
 أَغَالِكَ سَهْلُ الْأَرْضِ أَمْ غَالِكَ الْجَبَلُ  
 تُذَكِّرُنِيهِ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا  
 وَتَعْرِضُ ذِكْرَهُ إِذَا قَارَبَ الطَّفَلَ  
 وَإِنْ هَبَّتِ الْأَرْوَاحُ هَيَّجَنَ ذِكْرَهُ  
 فَيَا طَوَّلَ مَا حُزِنِي عَلَيْهِ وَيَا وَجَلَ  
 سَاعِمِلُ نَصَّ الْعَيْسِ فِي الْأَرْضِ جَاهِدًا  
 وَلَا أَسَامُ التَّطَوَّافِ أَوْ تَسَامُ الْإِبْلِ  
 حَيَاتِي أَوْ تَأْتِي عَلَيَّ مَنِّيَّتِي  
 وَكُلَّ امْرئٍ فَإِنْ وَإِنْ غَرَّهُ الْأَمَلُ (١)

وفي غمرة البحث عن زيد جاء صوت البشير إلى أبيه بوجوده في مكة.

وقد أورد ابن سعد في طبقاته هذه القصة فقال (٢) :

(.. فحج ناس من كلب — قبيلة زيد — فرأوا زيدا فعرفهم وعرفوه فقال:  
 بلغوا أهلي هذه الآيات فإني أعلم أنهم قد جزعوا عليّ وقال:  
 أَحَنُّ إِلَى قَوْمِي وَإِنْ كُنْتُ نَائِبًا  
 بَأْنِي قَطِينِ الْبَيْتِ عِنْدَ الْمَشَاعِرِ  
 فَكَفُّوا مِنَ الْوَجْدِ الَّذِي قَدْ شَجَاكُمْ  
 وَلَا تَعْمَلُوا فِي الْأَرْضِ نَصَّ الْأَبَاعِرِ  
 فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ مِنْ خَيْرِ أَسْرَةٍ  
 كَرَامٍ مَعَدَّ كَابِرًا بَعْدَ كَابِرِ

(١) طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٤١

(٢) طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٤١



قال: فانطلق الكلبيون وأعلموا أباه فقال: ابني ورب الكعبة ووصفوا له موضعه وعند من هو، فخرج حارثة وكعب ابنا شراحيل بفدائه، وقدموا مكة فسألوا عن النبي (ﷺ) فقيل هو في المسجد، فدخلا عليه، فقالا: يا ابن عبد الله، يا ابن عبد المطلب، يا ابن هاشم، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل الحرم وجيرانه وسدنة بيته

تفكون العاني وتطعمون الأسير جئناك في ابنا عندك فامن علينا وأحسن إلينا في فدائه فإننا سنرفع لك في الفداء قال: ماهو؟ قالوا: زيد ابن حارثة. فقال رسول الله (ﷺ): فهل لغير ذلك؟ قالوا: وماهو؟ قال ادعوه فخيروه، فإن اختاركم فهو لكما بغير فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحدا. قالوا: قد زدتنا على النصف وأحسننا قال: فدعاه، فقال: هل تعرف هؤلاء؟ قال: نعم، قال: من هما؟ قال: هذا أبي وهذا عمي، قال: فأنا من قد علمت ورأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما. فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحدا أنت مني بمكان الأب والأم.

وفي رواية: والعم بدلا من الأم.

فقال: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أهلك وعمك وأهل بيتك؟

قال: نعم؛ إنني قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذي أختار عليه أحدا أبدا.

فلما رأى ذلك رسول الله (ﷺ) أخرجه إلى الحجر فقال: (يامن حضر اشهدوا أن زيدا ابني أرثه ويرثني، فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا، فدعى زيد بن محمد حتى جاء الله بالإسلام.) (١).

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ ص ٤١ - ٤٢

ويفهم من ظاهر كلام ابن سعد أن التبنّي ألغى في أول الإسلام،  
ولكن الأمر ليس كذلك، وإنما ألغى التبنّي في السنة الرابعة أو  
الخامسة من الهجرة لأنه ذكر في سورة الأحزاب وهي مدنية..

\*\*\*

## زيد فى بيت محمد (ﷺ)

كان لقاء زيد بأبيه وعمه وتفضيله البقاء فى بيت النبوة على العودة إلى الأهل والعشيرة قبل أن يبعث النبى (ﷺ) بسنوات. ويلاحظ أن نشأة زيد فى بيئته العربية الأصيلة ثم فى بيت السيدة خديجة رضى الله عنها أكسبته أخلاقا فاضلة وخلالا حميدة جعلت النبى (ﷺ) قبل البعثة يستوهمه من خديجة فوهيته له. فاجتمع فى زيد بهذا شرف المحتد وكرم الأصل وحسن الرعاية والتأديب، فلا عجب أن ينشأ زيد بطلا عظيما وفاضلا كريما.

\*\*\*

## إسلام زيد

وقد أسلم زيد في اللحظة الأولى من بعثة محمد (ﷺ) قال ابن إسحاق: إن علياً أسلم بعد خديجة ثم أسلم بعده زيد ثم أسلم أبو بكر، وكان زيد جندياً من جنود الإسلام وداعية من دعائه وقائدا من قواده، وكان يلزم رسول الله (ﷺ) في غدوه ورواحه، واستشهد في معركة مؤتة سنة ٨ هـ .

هذه نبذة يسيرة عن حياة زيد بن حارثة عرفنا من خلالها أن زيدا لم يكن من الموالى في الأصل، وإنما هو عربى أصيل، ثم حدثت تطورات في حياة زيد الأسرية، إذ تبناه رسول الله (ﷺ) عندما اختاره زيد على والده وأهله كما تقدم.

فكان زيد بعد ذلك يُدعى زيد بن محمد كما ثبت في صحيح البخارى<sup>(١)</sup> وغيره من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.. أن زيد بن حارثة مولى رسول الله (ﷺ) ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن «ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ..»<sup>(٢)</sup> وقد فهم المستشرق «مونتجومرى وات» بأن سبب تسمية زيد بن حارثة زيد بن محمد هو زواج النبی (ﷺ) بخديجة وتربى زيد في حجرها، وليست تسميته لأن محمداً أعتقه وتبناه، إذ يقول في كتابه (محمد فى المدينة) مانصه:

(وربما أصبح زيد بن حارثة ابن محمد حين تزوج خديجة وليس حين أطلقه محمد...)<sup>(٣)</sup> .

(١) رواه البخارى فى كتاب التفسير ، وانظر فتح البارى ج ٨ ص ٥١٧

(٢) سورة الأحزاب آية ٥

(٣) محمد فى المدينة ص ٤٣١

وهذا الكلام غير صحيح لأن عادة التبنى كانت مشهورة في الجاهلية، ثم الحادثة المشهورة التي تقدم ذكرها وهي اختيار رسول الله (ﷺ) على والده وأهله، فكافأه رسول الله (ﷺ) على ذلك بأن أعتقه وتبناه وقال: (يا من حضر اشهدوا أن زيدا ابني أرثه ويرثني..).

\*\*\*

## ظاهرة التبنى فى الجاهلية

التبنيّ: هو أن يتخذ أحد ابن غيره ابناً له، ويعطيه من الحقوق ما يُعطيه لابنه الحقيقي، ومن ظواهر التبنى: أن أحكامه تقضى بالتوارث بين الأب وابنه بالتبنيّ، فكأنه ابنه الحقيقي كما فى قول رسول الله (ﷺ) المتقدم (اشهدوا أن زيدا ابني أرتّه ويرثنى)، وقول الرسول (ﷺ) هنا ليس شرعاً سماوياً لأن ذلك كان قبل البعثة استصحاباً للحال الذى عليه أهل زمانه، فلا يعتبر هذا دليلاً على مشروعية التبنى فى الإسلام.

ومن أحكام التبنى أنه يسرى الحكم فى المحرمات، فزوجة الابن المتبنىّ مثلاً تحرم على أبيه المتبنىّ.

ولما فى هذه الأحكام الجاهلية من الإضرار بالحقوق الأسريّة وإقامة العلاقات العائلية على غير وضعها الطبيعى، ولما ينشأ عنها من الأضرار والمفاسد جاء الإسلام بإبطال التبنىّ، وإذا بطل التبنىّ بطل ما يتعلق به من أحكام، ولكن سياسة التشريع الإلهي تأتي بالتدرج فى الأحكام للتخفيف على الناس ولما كان التبنىّ وأحكامه الجاهلية متأصلة فى نفوس الناس، فمن الصعب أن تزول بين عشية وضحاها، وأن تختفى أحكامه فجأة دون أن يكون للناس قدوة مُثلى تباشر تغيير ذلك بنفسها وتكسر الطوق المستحکم فى رقاب الناس ومشاعرهم تجاه أمر الفؤه فى جاهليتهم وأول إسلامهم.

ولهذا ألهم الله تعالى رسوله (ﷺ) بأن يبدأ معالجة الموضوع على

مراحل:

## مراحل إلغاء التبنّي:

المرحلة الأولى : التمهيد بتزويج زيد بن حارثة بزینب بنت جحش وهى: بنت عمّة الرسول (ﷺ)، وهذا الزواج له أغراض متعددة ولكن أبرزها غرضان أساسيان:  
الغرض الأول :

إلغاء الفوارق الطبقيّة التي كانت موجودة في الجاهلية، ومنها: أن الذى جرى عليه الرق يوما من الأيام لو تحرر بعد ذلك غير مكافئ للحر الذى لم يجر عليه الرق، وهذه ظاهرة متأصلة في العرب حتى ولو كانوا مسلمين، وخير شاهد على هذا ممانعة زينب وأخيها في بداية الأمر من زواجها بزید بن حارثة، والإسلام يريد أن يجعل التقوى هي ميزان التكافؤ: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (١).  
(إذا أتاكم من تَرْضُونَ خُلُقَهُ ودينه فزوّجوه....) (٢).

الغرض الثانى :

إنّ هذا الزواج كان مقدمة لتشريع آخر تمثل في زواج النبي (ﷺ) بزینب بعد طلاقها من زيد، إبطالا لما كانوا يعتقدونه من حرمة زوجة الابن بالتبنّي، وإن كانت هذه الحكمة غير واضحة في بداية الأمر بالنسبة لزید وزینب وربما حتى لرسول الله (ﷺ)؛ لأنه من الجائز أنه لم يأته الوحي بذلك ، وإنما كان إلهاماً إلهياً؛ والله تعالى إذا أراد شيئاً هبياً له الأسباب.

المرحلة الثانية : نزول القرآن بالنهي عن التبنّي قال تعالى: (..وَمَا جَعَلَ

(١) سورة الحجرات الآية ١٣

(٢) أخرجه الترمذى في سننه — كتاب النكاح — باب ما جاء: إذا جاءكم من ترضون دينه فزوّجوه. وأخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح — باب الأكلفاء.

ورواه الحاكم وقال: صحيح، كما في فيض القدير للمناوى ج ١ ص ٢٤٣.

أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ، ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ» (١).

وتقدم حديث ابن عمر ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن (ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) ومن ثم نادى رسول الله (ﷺ): يا معشر المسلمين إن زيد بن محمد أصبح من اليوم يُدعى زيد بن حارثة، وصحح رسول الله (ﷺ) هذه الحالة وأرجع زيدا إلى نسب أبيه امتثالا لأمر الله تعالى، ولما نزلت هذه الآية اشتد حزن زيد وقال: أنا زيد بن حارثة، ولكن الله تعالى جبر قلبه وآنس وحشته إذ شرفه بأن سماه في القرآن الكريم حتى صار اسمه قرآناً يُتلى، فقد نوه به غاية التنويه فكان في هذا تأنيس له وعض عن الفخر بأبوة سيدنا محمد (ﷺ)، ألا ترى إلى قول أبي بن كعب حين قال له النبي (ﷺ): إن الله تعالى أمرني أن أقرأ عليك سورة كذا، فبكى أبي وقال أو ذكرت هنالك (٢)، وكان بكاءه من الفرح حين أخبره أن الله تعالى ذكره، فكيف بمن صار اسمه قرآناً يتلى في قوله تعالى (..) فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا).

المرحلة الثالثة: إبطال ما يتعلق بالتبني من أحكام إبطالاً عملياً، وذلك بأن تزوج رسول الله (ﷺ) زينب بنت جحش وكانت زوجة ابنه المُتَبَنَّى (زيد) فعندما طلقها زيد وانقضت عدتها منه تزوجها رسول الله (ﷺ) كسراً لطوق العادة المستحكمة في نفوس الناس في حرمة حليلة الإبن المُتَبَنَّى. ولما تزوجها رسول الله (ﷺ) طفحت نفوس المنافقين بالنفاق، وقالوا: تزوج محمد حليلة ابنه فأنزل الله تعالى:

(١) سورة الأحزاب آية ٤ - ٥

(٢) انظر فتح الباري ج ٧ ص ٦٩



«مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَحَاتَمَ النَّبِيِّينَ»<sup>(١)</sup>. فزينب ليست حليمة ابنه على الحقيقة، وزيد ليس ابن محمد، وإنما هو في الحقيقة ابن حارثة، وإذن فلا حرج في هذا الزواج إذا نظر إليه بعين الحقيقة الفاحصة، وقد جاء التشريع في المحرمات واضحاً جلياً في سورة النساء فقال تعالى:

«..حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ — إِلَى قَوْلِهِ — وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ..»<sup>(٢)</sup>

وقد جاء التنصيص على أبناء الأصلاب لبيّن بطريق المفهوم أن حلّائل الأبناء الأدياء غير داخلات في هذا التحريم، كما كانت العرب تعتقد ذلك.

هذه مراحل إلغاء التبنّي حصرتها بطريق الاستقراء لوقائع الأحداث التي كانت في تلك الفترة مما له صلة بهذا الموضوع.

وسنبداً بذكر زواج زيد بن حارثة بزيب، ثم زواج الرسول (ﷺ) بها بعد طلاقها من زيد، ولكنني أرى أن أضع بين يدي ذلك ترجمة موجزة لزينب رضی الله عنها.

### ترجمة زينب بنت جحش:

هي زينب بنت جحش بن رثاب بن يعمر بن صبرة بن مرة ابن كبير بن غنم بن داود بن أسد بن خزيمه، وأمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بنى قصي..

قال ابن سعد: قدم النبي (ﷺ) المدينة وكانت زينب بنت جحش ممن هاجر مع رسول الله (ﷺ) إلى المدينة، وكانت امرأة جميلة

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٠

(٢) سورة النساء آية ٢٣

فخطبها رسول الله ﷺ على زيد بن حارثة فقالت: يا رسول الله لا أرضاه لنفسى وأنا أئيم قریش، قال: فإنى قد رضيته لك.. فتزوجها زيد ابن حارثة (١).

وكانت تسمى برة فسامها رسول الله ﷺ زينب عندما تزوجها.. ووصفها النبي ﷺ بأنها أوّاهة..

فعن عبد الله بن شداد أن رسول الله ﷺ قال لعمر ابن الخطاب: إن زينب بنت جحش أوّاهة فقال رجل: يا رسول الله ما الأوّاه؟ قال: الخاشع المتضرع، إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب، وقالت عائشة رضى الله عنها: كانت زينب هى التى تسامينى من أزواج النبي ﷺ، ولم أر امرأة قط خيراً فى الدين من زينب وأتقى لله وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشدّ ابتذالاً لنفسها فى العمل الذى يتصدق به ويتقرب إلى الله عز وجل ماعدا سورة من حدة كانت فيها تسرع منها الفيئة اخرجہ مسلم (٢).

السورة: أى ثورة الغضب، الفيئة: أى الرجعة.

وكانت تفخر على أزواج النبي ﷺ بتزويج الله إياها من فوق سبع سموات (٣).

وروى ابن جرير عن الشعبي قال: كانت زينب رضى الله عنها تقول للنبي ﷺ: إني لأدل عليك بثلاث مامن نسائك امرأة تدل بهن: إن جدى وجدك واحد، وإنى أنكحنيك الله عز وجل من السماء، وإن السفير لجبريل عليه السلام (٤).

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٨ ص ١٠١ وانظر ترجمتها فى الإصابة لابن حجر ج ٤ ص ٣٠٧، والروض الأنف للسهيلي (٣٦٨/٢) ط الأولى.

(٢) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٩٢

(٣) انظر فتح البارى ج ٨ ص ٤٠٢ وسنن الترمذى ج ٨ ص ٣٤٨

(٤) تفسير الطبرى ج ٢٢ ص ١٤ ط الحلبي الثانية.

وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم زينب بطول اليد، كناية عن الصدقة، فقد روت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله (ﷺ) قال: «أسرعكن لحوقا بى أطولكن يدا، قالت فكن يتناولن أيهن أطول يدا قالت وكانت أطولنا يدا لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق» أخرجه مسلم.

وفى رواية أخرى عن عائشة أيضا قالت: قال رسول الله (ﷺ) لأزواجه: «أولكن يتبعنى أطولكن يدا» قالت عائشة: فكنا إذا اجتمعنا بعد رسول الله (ﷺ) نمد أيدينا فى الحائط نتناول فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش.. وكانت امرأة قصيرة ولم تكن أطولنا، فعرفت أن النبي (ﷺ) أراد بطول اليد الصدقة وكانت امرأة صناعا وكانت تعمل بيدها وتتصدق به فى سبيل الله (١).

وكانت زينب رضى الله عنها امرأة زاهدة، فقد روى أن عطاءها من بيت المال فى عهد عمر بن الخطاب بلغ اثنى عشر ألف درهم ولم تأخذه إلا عاما واحدا، حمل إليها اثنى عشر ألف درهم فجعلت تقول: اللهم لا يدركنى قابل هذا المال فإنه فتنة ثم قسمته فى أهل رحمها وفى أهل الحاجة حتى أتت عليه فبلغ عمر فقال: هذه امرأة يراد بها خير، فوقف على بابها وأرسل بالسلام وقال: قد بلغنى ما فرقت فأرسل إليها بألف درهم تستبقها فسلكت بها الطريق الأول نفسه.

وتوفيت زينب رضى الله عنها وكانت كما أخبر النبي (ﷺ) أول نسائه لحوقا به. وكانت وفاتها سنة عشرين من الهجرة وعمرها ثلاث وخمسون سنة.. ولما توفيت زينب رضى الله عنها قالت عائشة: ذهبت حميدة فقيدة مفرزع اليتامى والأرامل (٢)..

(١) الطبقات لابن سعد ج ٨ ص ١٠٨، والسمط الثمين ص ١٢٨

(٢) الطبقات ج ٨ ص ١١٠ بتصرف يسير.

## زواج زيد بزینب، أغراضه واهدافه:

(أ) أغراض هذا النوع من الزواج:

- ١ — إلغاء الفوارق الطبقية كما تقدم..
- ٢ — إنه كان مقدمة لتشريع آخر يقوم عليه، وإن لم تعلم الحكمة في بداية الأمر للزوجين..
- ٣ — مكافأة زيد بن حارثة على ما قدمه من تضحيات، وما تعرض له من متاعب فاختر معها كلها صحبة رسول الله (ﷺ) على والده وأهله والناس أجمعين.. فأراد رسول الله (ﷺ) أن يكافئه بتزويجه بزينة الهاشميات.. زينب بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب وهي من أشرف نساء قريش حتى لقد سمعت وهي تقول: (أنا سيدة أبناء عبد شمس)..<sup>(١)</sup>

وفي هذا رفع لمعنويات زيد وطمس لما علق في ذهنه وشعوره من أوضار الرق، وقد برهن رسول الله (ﷺ) على وفائه لزيد برهانا عمليا في هذا الزواج كما برهن من قبل باتخاذ ابنه له.

(ب) خطبة الرسول (ﷺ) زينب لزيد بن حارثة:

تشير المصادر التاريخية إلى أن رسول الله (ﷺ) خطب زينب بنت جحش لزيد بن حارثة.

فقد روى أبو نعيم الأصبهاني في (حلية الأولياء)<sup>(٢)</sup> بالسند المتصل إلى زينب قالت: خطبني عدة من قريش فأرسلتُ أختي حمنة إلى رسول الله (ﷺ) أستشيره فقال لها رسول الله (ﷺ): (أين هي ممن يعلمها كتاب ربها وسنة نبيها (ﷺ)؟) قالت: ومن هو يارسول الله؟ قال: (زيد بن حارثة).

(١) السمط الثمين للمحب الطبري ص ١٢٩ ط حلب.

(٢) حلية الأولياء ج ٢ ص ٥١

ولكن يبدو أن زينب مانعت في البداية معتزة بنسبها العربي الشريف  
وخشيت أن يكون في زواجها من زيد هضم لشرفها وخط من مكانتها  
وأشار عليها رسول الله (ﷺ) بالزواج من زيد وأثنى عليه بما هو أهله..  
فقالت زينب: يارسول الله لأرضاه، وأنا أيم قريش. قال: فإنى قد  
رضيته لك.. (١)

وقد أصدقها في هذا الزواج عشرة دنانير، وستين درهما، وخمارا،  
وملحفة ودرعا، وخمسين مدا من طعام، وعشرة أمداد من تمر، قاله  
مقاتل بن حيان كما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢) ...  
ويذهب جمهور المفسرين وأصحاب السير إلى أن زينب وأخاها  
عبد الله، منعوا في البداية من قبول زواجها من زيد فأنزل الله تعالى: «وَمَا  
كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ  
مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا» (٣).  
وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقرر في  
الأصول.. وعلى كل حال فقد وافقت زينب على هذا الزواج.

وفي نظري أن الموافقة كانت مبنية على أساسين:  
الأول: امتثال أمر الله تعالى وطاعة رسوله (ﷺ) فيما رغب فيه وأمر  
به كما في الآية السابقة.

الثاني: أن زيد بن حارثة كان يُدعى زيد بن محمد فخفف ذلك عنها  
إلى حد كبير إذ قالت ومن أعزُّ من زيد بن محمد؟  
ولهذا استمرت العشرة بينهما في بداية الأمر حتى أبطل الله التبنّي  
فصار يُقال لزيد: بن حارثة، بدلًا من زيد بن محمد، ومن هنا نشأت

(١) طبقات ابن سعد ج ٨ ص ١٠١

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٩١

(٣) سورة الأحزاب آية ٣٦

بينهما جذور الخلاف وأخذت تترفع على زيد. وقد فطن زيد لهذا الأمر بلباقة، ولم تكن نفسه الكريمة هيئة عليه، فحاول التخلص منها وعدم إزعاجها أو إمساكها على غير رضى أو عشرة زوجية حميدة أخذاً بآداب الإسلام (فإمساكاً بمعروفٍ أو تسريحاً بإحسان)، قد يقول قائل: بأن آية التبنّي متقدمة فى أول سورة الأحزاب، وذكر زيد وزوجه متأخر بعد آية التبنّي.

والجواب: أن زواج زيد بزینب كان فى أوائل السنة الرابعة تقريباً ونزول سورة الأحزاب كذلك فى السنة الرابعة وأوائل الخامسة. وأما تقدم آية التبنّي فى الذكر فلا يلزم تقدمها فى النزول كما هو معروف فى علوم القرآن.

على أن زواج زيد بزینب وإلغاء التبنّي كانا متقاربين وفى سنة واحدة تقريباً، ولا شك أن زينب كانت تواجه فى البداية امتحاناً تشريعياً فى زواجها بزید لأن الإسلام أراد بهذا الزواج إلغاء الفوارق الطبقيّة حيث جعل الكفائة فى الدين . ولكن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله تأنى بأفضل النتائج وأحسن الثمار كما سيأتى من تحول حياتها بعد بؤس وشقاء إلى سعادة.

ولقد أشارت بعض المصادر إلى أن زينب مكثت عند زيد ما يقرب من سنة (١).

ثم ساءت العلاقة بينهما فذهب زيد إلى رسول الله (ﷺ) يستشيريه فى طلاقها ويشكو إليه أمرها، وأبدى رسول الله نصحه لزيد بأن يمسك زينب لعل العلاقة معها تتحسن فقال له يا زيد (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ)، ولكن إرادة الله غالبية وهو الذى بيده مصائر الأمور فلا بد أن تجرى الأمور وفق التوجيه الربانى لأن زواج زيد بن حارثة بزینب كان فى

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٩١

باطن الأمر تشريعاً، ويستأنس لذلك بالآية السابقة وهي قوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ».

فالقضاء هنا معناه التشريع، أى إذا شرع الله ورسوله أمراً، وهذا التشريع سيقوم عليه تشريع آخر يباشره الرسول (ﷺ) بنفسه على ما فيه من ضخامة المسؤولية فى أعرف الناس وشدة الوطأة فيما يتحملة (ﷺ) من مقالات المنافقين ومن لاذ بهم من ذوى الاتجاهات المنحرفة.

وقد أصبحت حياة الزوجين — زيد وزينب — لاتطاق ولم يكن لهما بد من الفراق، وصمم زيد على فراق زوجته زينب فطلقها وانفصمت العلاقة بينهما بعد أن قضى منها وطره ولم يبق له رغبة فى إقامة العلاقة الزوجية معها، لأنه كان كريم النفس ولا يريد أن يبنى سعادته على تعاسة الآخرين.

وقد لمس من زينب أنها تعيش فى قلق واضطراب فى حياتها الزوجية ولهذا صمم على الفراق وعدم الإضرار بها. وانتهى زواج زيد بن حارثة بزینب بنت جحش على هذا الوضع دون أى تدخل خارجى بينهما مما يسبب فساد العلاقة الزوجية.

وزينب ليست هى الأولى من زوجات زيد ولا الأخيرة، فقد تزوج قبلها بأىمن مولاة رسول الله (ﷺ) فولدت له أسامة بن زيد. وتزوج بعد زينب من كرائم نساء قريش، فقد أورد الحافظ ابن حجر فى الإصابة فى ترجمة زيد بن حارثة ما نصه:

(وقال ابن الكلبي عن أبيه عن أبى صالح عن ابن عباس لما تبني رسول الله (ﷺ) زيدا زوجة زينب بنت جحش وهى بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب، وزوجه النبى (ﷺ) قبل ذلك مولاته أم أيمن فولدت له أسامة، ثم لما طلق زينب زوجة أم كلثوم بنت عقبة وأمها

أروى بنت كرز، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب فولدت له زيد بن زيد، ورقية، ثم طلق أم كلثوم وتزوج درّة بنت أبي لهب بن عبد المطلب ثم طلقها وتزوج هنداً بنت العوام أخت الزبير<sup>(١)</sup>..؟

## زواج النبي ﷺ بزینب بنت جحش:

قضت سنة الله في خلقه أن مارسخ في النفس بحكم العادة لايسهل عليها التخلص منه إلا بكلفة ومشقة.. ولا يقدر على ذلك إلا من رفعه الله فوق العادات وأعتقه من رق الشهوات وجعل همته فوق المألوفات، وذلك هو النبي محمد ﷺ ومن يختصه الله بالتأسي به؛ لهذا كان الأمر إذا نهى الله تعالى عن مكروه — بادر النبي إلى الامتثال بإتيان المأمور به حتى يكون قُدوةً حسنة ومثالاً صالحاً تحاكيه النفوس وتحتذيه الهمم وحتى يخف وزر العادة، وتخلص العقول من ريب الشبهة<sup>(٢)</sup>.

وظاهرة التبنّي كانت متغلغلة في نفوس الناس ومشاعرهم، وليس من السهل التغلب عليها، دون كسر لطوقها وخرق لمألوفها على يد المثل الكامل والقُدوة الحسنة للناس؛ ولهذا كان لابد من مباشرة ذلك من إمام الأمة وقائدها ليكون أَدعى للاستجابة وأسرع في التنفيذ وأحكم في القضاء على هذه الظاهرة الاجتماعية المضرة بكيان الأسر والمجتمعات في بنائها على غير وضعها الطبيعي، وهل يقوم على مخالفة مألوف العرب وتحطيم أغلالهم ونبد خرافاتهم إلا رجل ملك الإيمان نفسه وملاً الحق قلبه وتغلغلت فيه الشجاعة الخلقية، فوصلت منه إلى اللب والشغاف؟ ذلك هو الرسول الكريم محمد ﷺ، لقد باشر ذلك

(١) الإصابة ج ٢ ص ٦٠٠ ط نهضة مصر.

(٢) من كلام الإمام محمد عبده في مقال له، بتصرف.



بنفسه سنّاً للشرائع، وإيضاحاً لأُمور الدين، وتبيانا للعالمين ، وتصحيحاً لأوهام الناس وأعرافهم وصهرها في قالب الحق والعدالة.. وقد خرج النبي (ﷺ) على مألوف العرب وغير وجهة أحوالهم ومعتقداتهم، لأنهم كانوا يدعون للدّعيّ ما للابن من الحقوق من إرث ونسب ورسخ ذلك في أذهانهم حتى حطّم النبي (ﷺ) ذلك بنفسه الطاهرة الشريفة..

### الحكمة في زواج النبي (ﷺ) بزَيْنَب:

لاشك أن زواج النبي (ﷺ) بزَيْنَب لم يكن مبعثه العاطفة كما يتصورّ بعض المستشرقين الحاقدين على الإسلام أو ذوو الغفلة.. من المسلمين ، وهذا باعتراف كثير من المستشرقين الذين تاه بهم الخيال في بعض الجوانب الأخرى من حياة الرسول الأعظم محمد (ﷺ): فالمستشرق «مونتجومري وات» في كتابه محمد في المدينة يقول: «ليس من المبالغة القول بأن جميع زيجات محمد كان لها هدف سياسي، لنا الحق إذن في القول بأن محمداً في قصة زينب بنت جحش لم يذهب ضحية حب عنيف بل رأى بوضوح الفوائد السياسية لهذا الزواج».

ثم يقول في مكان آخر.. «وبالرغم من القصص العاطفية من البعيد أن يكون محمد قد أُسِرَ بمفاتن زينب الجسدية..» (١).

والحقيقة أن هناك حكماً خاصة بزواج النبي بزَيْنَب غير الحكم العامة التي تشترك فيها زينب مع أمهات المؤمنين الأخريات ، ويمكن أن نلخص أهم تلك الحكم والبواعث لزواج النبي (ﷺ) بزَيْنَب فيما يلي:

١ — الحكم التشريعية: في إبطال التبنّي، وبالتالي إبطال ما يتعلق

(١) محمد في المدينة ص ٥٠٤ ٥٠٥

به من أحكام كحرمة زوجة الابن المُتَبَنَّى على أبيه المُتَبَنَّى .  
وقد أبطل النبي (ﷺ) ما كان قائماً من أحكام التبنّي هدمه بالوحي  
القرآني كما هدمه بالسنة التطبيقية العملية، واستمع إلى قوله تعالى في  
حكمة هذا الزواج.. «.. فلما قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا  
يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ  
وَطَرًا.» (١) فقد نصت الآية على عدم حرمة زوجة الابن الدّعي إذا  
قضى منها وطره وطلقها فكان هذا تشريعاً عاماً.

٢ — اكتمال عوامل هذا التشريع في رسول الله (ﷺ) وفي زيد، إذ  
كان يقال لزيد، زيد بن محمد وهذا عن طريق التبنّي كما أن زيدا تزوج  
بزینب ثم طلقها برغبته لما قضى منها وطره.

وقد لا تجتمع هذه العوامل من جوانبها المختلفة في غير  
النبي (ﷺ) وزيد وزینب في تلك الظروف الراهنة التي تحتاج إلى  
استقرار التشريع وترسية قواعد العدل، وإقامة نظم الحياة الاجتماعية  
والعلاقات الأسرية على وجهها الصحيح، وربطها بالمجتمع في صورة  
واضحة جلية دون مخالفة لقوانين الأسر الطبيعية التي اختارها الإسلام  
وأرساها بين بني البشر على أسسها الصحيحة.

٣ — كون الرسول (ﷺ) هو القُدوة المُتَلَى للأمة، وفعله لهذا  
الأمر بنفسه أدعى للقضاء على تلك الظاهرة المتغلغلة في النفوس  
والمشاعر، فإن وقوع هذا من إمام المسلمين الأعظم أدعى لقبولهم  
وأسرع لحسم تلك الظاهرة الاجتماعية التي غيّرت كثيراً من الحقائق  
وحرمت الكثير من الحقوق، وقد كان رسول الله (ﷺ) إذا أمر بشئ أو  
دعا إليه حاول تطبيقه على نفسه الشريفة وعلى أقاربه وخاصته، وخير  
شاهد على هذا أن الرسول صلى (ﷺ) نادى في حجة الوداع بحرمة

(١) سورة الأحزاب آية ٣٧

الربا، والربا منتشر في البيئات الاجتماعية الجاهلية بشكل خطير، ولكن رسول الله (ﷺ) اتبع سياسة حكيمة في حجة الوداع، وأراد أن يبدأ بأقرب الناس إليه، فكان أول ربا وضعه (ﷺ) ربا عمه العباس حتى يرى الناس صنيعة بأقرب الناس إليه وأكرمهم عليه فيسهل عليهم ترك أموالهم.. وتقطع وساوس الشيطان من صدورهم، كما أن هناك حادثة مشهورة في غزوة الحديبية عند ما أمر رسول الله أصحابه بالتحلل من الإحرام والحلق ونحر الهدي، فقد أخرج البخاري وأبو داود عن المسور ابن مخزومة ومروان في حديث الحديبية أنه (ﷺ) بعد أن فرغ من الكتاب الذي تضمن شروط الصلح قال (ﷺ) لأصحابه رضى الله عنهم: «قوموا فانحروا ثم احلقوا؛ فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقيم منهم أحد دخل على أم سلمة رضى الله عنها فذكر لها ما لقي من الناس فقالت: يا نبي الله أتحب ذلك؟ أخرج ولا تكلم منهم أحدا حتى تنحر بُدُنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج فصنع الذي قالت، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما»<sup>(١)</sup>.

ومن هنا نعلم أن فعل الأمر لما يأمر به عامل كبير في تنفيذ أتباعه لتوجيهاته وتعاليمه لاسيما إذا كان قدوة حسنة ومثلا أعلى، وقديما قال الشاعر:

وإنك إذ ما تأت مآنت أمر به تلف من إياه تأمر آتيا

٤ — مكافأة زينب على طاعتها الأولى لله ولرسوله وامثالها للأمر بالزواج من زيد رغم ما تواجه من ظروف اجتماعية صعبة ولكنها في النهاية رضيت بما رضى لها رسول الله (ﷺ) تاركة نبرات الناس

(١) انظر فتح الباري ج ٥ ص ٢٥٦ ط دار المعرفة بيروت

وهمساتهم جانباً، وهذه تضحية أرادت بها إرضاء الله تعالى وامتنال أمر رسوله وتحقيق رغبته، فجنت ثمار التقوى والطاعة، وفازت بشرف الدنيا والآخرة.. إذ تزوّجها رسول الله (ﷺ) وأصبحت في تعداد أمهات المؤمنين.

٥— ربما شعرت زينب بأنها قد حطّت من مكانتها وهي سيدة أبناء عبد شمس فإذا هي زوجة مولى جرى عليه الرق يوماً من الأيام، وكان هذا الأمر مما تستعيبه العرب، فكان هذا الزواج رفعاً لمكانتها وسمواً بشخصيتها التي كانت تطمح إلى الذوائب من قريش قبل ذلك، فحقق الله لها الزواج من سيد الأولين والآخريين رسول الله (ﷺ).

ولا يمكن أن يرقى بها وبنفسيها الكبيرة إلا رسول الله (ﷺ)، وربما أدرك ذلك رسول الله فكان عاملاً من عوامل زواج النبي (ﷺ) بزینب.

وحتى بعض المستشرقين يرى هذا المنزع فى بواعث هذا الزواج يقول المستشرق «مونتجومرى وات»: «ربما أدرك محمد أن زينب ملّت زيدا وليس هناك من رجل يليق بأن يصبح زوجاً لها»<sup>(١)</sup> يعنى غير رسول الله (ﷺ)، هذه بعض الحكم والبواعث لزواج النبي (ﷺ) بزینب.

### خطبة النبي صلى الله عليه وسلم زينب لنفسه:

روى الإمام أحمد<sup>(٢)</sup> ومسلم<sup>(٣)</sup> والنسائي عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله (ﷺ) لزيد اذكرها علىّ، قال فانطلقت فقلت يا زينب أبشرى أرسل رسول الله (ﷺ) يذكرك فقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله (ﷺ) حتى دخل عليها بغير إذن.

(١) محمد فى السانينة ص ٥٠٥ (٢) مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٩٥ ط الحلبي

(٣) صحيح مسلم ١٦ كتاب النكاح.

## لماذا اختار رسول الله (ﷺ) زيدا وسيطا في خطبة زينب؟

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «وهذا أيضا من أبلغ ما وقع في ذلك، وهو أن يكون الذي كان زوجها هو الخاطب لئلا يظن أحد أن ذلك وقع قهراً بغير رضاه، وفيه أيضا اختبار ما كان عنده منها هل بقي منه شيء أم لا (١)».

## كيف تم زواج النبي (ﷺ) بزینب؟

يذكر ابن هشام في السيرة النبوية أن رسول الله (ﷺ) تزوج زينب بنت جحش بن رثاب الأسديّة، زَوْجَهُ إياها أخوها أبو أحمد بن جحش وأصدقها رسول الله (ﷺ) أربعمائة درهم... إلخ (٢)، ولكن السهيلي تعقبه في الروض الأنف (٣) فقال: «وذكر زينب بنت جحش وأن أخاها أبا أحمد هو الذي أنكحها من رسول الله (ﷺ) وهذا خلاف ما ثبت في الحديث أنها كانت تفخر على صواحبها وتقول زوجكن أهلوكن من رسول الله وزوجني رب العالمين من فوق سبع سموات.. وفي آخر أنه لما نزلت الآية... «زَوَّجْنَا كَهَا» قام رسول الله (ﷺ) فدخل عليها بغير إذن» انتهى كلام السهيلي.

والآية صريحة في أن الله تعالى هو الذي زوج رسول الله (ﷺ) بزینب وزینب تحكى قصة زواجها من رسول الله (ﷺ) حيث قالت: «فلما انقضت عدتي — أى من زيد — لم أعلم إلا ورسول الله (ﷺ) قد دخل على بيتي وأنا مكشوفة الشعر فعلمت أنه أمر من السماء

(١) فتح الباري شرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٤٠٤

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٥٤

(٣) الروض الأنف للسهيلي شرح السيرة ج ٤ ص ٢٦٨

فقلت يا رسول الله بلا خطبة ولا إشهدا؟ فقال: «الله زوج وجبريل الشاهد»<sup>(١)</sup>.

تزوج النبي (ﷺ) بزینب وكسر طوق العادة الجاهلية المستحكمة في نفوس الناس ومشاعرهم.

وكان هذا الزواج تشريعاً محكماً ذكره الله في كتابه وبين حكمته للخاصة والعامّة في نص واضح صريح «لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطراً».

وقد طفحت نفوس المنافقين بالنفاق وتحدثوا مع من سار في ركبهم قائلين: نهانا محمد عن حلائل أبنائنا وسمح لنفسه بالزواج من حليلة ابنه.

ولما كانت هذه المسألة مسألة تقرير مبدأ جديد فقد مضى القرآن الكريم يؤكدّها.. ويزيل عنصر الغرابة فيها ويردها إلى أصولها البسيطة المنطقية التاريخية:

«مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ»<sup>(٢)</sup> فقد فرض الله له أن يتزوج زينب وأن يبطل عادة العرب في تحريم أزواج الأدياء، وإذن فلا حرج في هذا الأمر مادام الله تعالى هو الذي فرضه وألزم به رسوله (ﷺ)، علماً بأن زيدا ليس ابناً لمحمد على الحقيقة كما أن زينب ليست حليلة ابنه (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ)<sup>(٣)</sup>.

متى كان زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزینب؟

رجح الحافظ ابن كثير في كتابه البداية بأن زواج النبي (ﷺ)

(١) حليلة الأدياء، لأبي نعيم الأصبهاني ج ٢ ص ٥٢

(٢) سورة الأحزاب ٣٨ (٣) سورة الأحزاب ٤٠

بزینب كان سنة خمس من الهجرة حيث قال (... قال قتادة والواقدي وبعض أهل المدينة: تزوجها عليه السلام سنة خمس، زاد بعضهم في ذى القعدة، قال الحافظ البيهقي: تزوجها بعد بنى قريظة، وقال خليفة ابن خياط سنة ثلاث، والأول أشهر، وهو الذى سلكه ابن جرير وغير واحد من أهل التاريخ..)(١) وقال صاحب سمط النجوم العوالى: (تزوجها النبي ﷺ) هلال ذى القعدة سنة أربع من الهجرة وهى بنت خمس وثلاثين سنة يومئذ» كذا فى مختصر سيرة البرماوى. وقال فى المواهب: سنة خمس..(٢)

والذى يترجح فى نظرى ما رجحه ابن كثير لأن سورة الأحزاب نزلت فى السنة الرابعة، وفيها إلغاء التبنّى، وقد مكثت زينب عند زيد ما يقرب من سنة كما تقدم. وهذه الأمور كلها سابقة لزواج النبی ﷺ بزینب. ولهذا نرجح أن يكون زواجه بزینب فى السنة الخامسة أخذاً من وقائع الحوادث التى كانت فى تلك الفترة. وقد نقل ابن سعد فى الطبقات آثاراً تؤيد هذا (٣).

### الشبهات التى أثرت حول زواج النبی ﷺ بزینب

كان زواج النبی ﷺ مثار جدل قديماً وحديثاً بناءً على الأخبار التى دست فى التراث الإسلامى فى هذا الموضوع ويمكن أن نلخص الشبه التى أثرت فى هذا الموضوع عن طريق الاستقراء كما يلى:

#### الشبهة الأولى:

قالوا إنه تزوج حليمة ابنه مع نهيه عن حلائل الأبناء؟

(١) البداية لابن كثير ج ٤ ص ١٤٥، والسيرة النبوية ج ٣ ص ٢٧٧

(٢) سمط النجوم العوالى ج ١ ص ٣٨٧ (٣) انظر طبقات ابن سعد ج ٨ ص ١١٤

الرد على هذه الشبهة!!

تقدم القول بأن زيدا ليس ابن محمد على الحقيقة وإنما هو ابن حارثة كما أن زينب ليست حليمة ابنه على الحقيقة وإنما هي زوجة زيد ابن حارثة.

قال تعالى: «وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ» (١).

وقال تعالى: «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ» (٢).

أما نهى الإسلام عن حلائل الأبناء فالأمر واضح بأنه يراد من النهي تحريم حلائل الأبناء الحقيقيين. ولا يدخل الأبناء الأدعياء في هذا بدليلين ظاهرين:

الأول: زواج النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بزينب وهو صاحب الرسالة والمبلغ عن الله تعالى، فلا يمكن أن يخالف أمر الله تعالى ولا أن يتقوّل على الله ما لم يشرع. واستمع لقول الله تعالى: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ» (٣).

ومباشرة النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بنفسه هذا العمل بالسنة التطبيقية العملية ليبين للناس عدم حرمة حليمة من كان يدعى ابناً بالتبني إذا طلقها وانقضت عدتها..

الثاني: أن النص القرآني في المحرمات جاء صريحاً فقال تعالى: «وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ» (٤). فالقيد في الآية لم يكن عفويًا وإنما يراد منه حلائل الأبناء غير الأدعياء.

(١) سورة الأحزاب آية ٥ (٢) سورة الأحزاب آية ٤٠

(٣) سورة الحاقة آية ٤٤ — ٤٧ (٤) سورة النساء آية ٢٣.



فمفهوم المخالفة من الآية كما ترى أن حلائل غير الأبناء الأصلاب غير داخلات في المحرمات، وهذا الأمر بحمد الله واضح.. فلا شبهة في أن النبي (ﷺ) تزوج بزوجة ابنه، لأن هذا لم يكن على وجه الحقيقة والواقع.

### الشبهة الثانية:

قالوا: إن الرسول تزوج بزینب نتيجة للحب الذي وقع في نفسه عند رؤيته لها. ومستمسك أصحاب هذه الشبهة ماورد من الروایات الدخيلة في هذا الموضوع كقوله: إن الرسول (ﷺ) جاء إلى منزل زيد فلم يجده ورأى زینب وكانت بیضاء جميلة — فأعجبته ووقع حبها في قلبه... الخ..

والرد على هذه الشبهة يكون بنسف هذه الروایات الساقطة والقطع بعدم صحتها، بل من الدسائس التي أدخلت في التراث الإسلامي، سواء أكان صاحب هذه الدسیسة «یوحنا الدمشقی» كما تقدم، أم كان بعض الشعوبیین الحاقدين على الإسلام. وعلى هذا فلا یصح أن یقام عليها بناء من الوهم والتشكيك في نزاهة أنبياء الله ورسله.

وقد أوضحت في دراسة الأسانيد التي قامت عليها هذه الروایات بأنها واهية.. ساقطة.

وما دامت الرواية غير صحيحة فلماذا نكلف أنفسنا التماس بعض العلل والتفسيرات الدالة على عصمة الأنبياء؟

علماً بأن النص القرآني صريح في حكمة هذا الزواج ومشروعيته حتى إن الله تعالى هو الذي تولى هذا الزواج بنفسه تبرئة لرسوله (ﷺ) مما سيقوله المنافقون والحاقدون على رسول الإسلام فقال تعالى: «فَلَمَّا

قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوْجَنَا كَمَا لِكَيْلًا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي  
أَزْوَاجٍ أَدْعِيائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا».

الشبهة الثالثة:

قالوا: إن الله تعالى أشار إلى هذه العلاقة القلبية بين الرسول  
ﷺ وزينب، ولهذا عاتب الله رسوله على كتمان ذلك الميل النفسى  
لزينب وإخفائه هذا الأمر في نفسه عندما استشاره زيد في طلاقها فقال  
تعالى: «وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ  
زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ  
أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ» (١).

وقد فسر هؤلاء الآية بأن الذى كان يخفيه الرسول ﷺ فى  
نفسه هو حب زينب ورغبته الأكيدة فى طلاقها من زيد ليتزوجها بعده.  
والرد على هذه الشبهة من وجوه متعددة:

### الوجه الأول:

أن تفسير الآية على هذا المعنى خطأ واضح وخروج بالآية عن  
معناها الحقيقى وتحميل لها بما لا تحتمله.

فأما المعنى الصحيح فى تفسير الآية فهو كما يلى:  
«وَإِذْ تَقُولُ» يامحمد «لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ» بالإسلام «وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ»  
بالعتق والتربية والعطف. تقول له عندما جاء مُستشيراً لك فى طلاق  
زوجته زينب «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ» فى الإقدام على طلاقها  
أو الوقوع فى عرضها بأنها تؤذيك بلسانها وتسئ عشرتك  
الزوجية.. «وَتُخْفِي فى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ» أى وتخفى ما أعلمك الله  
به من قبل من أن زيدا سيطلقها وأنك ستترجها بعده هذماً لظاهرة

(١) سورة الأحراب آية ٣٧

التبني وتشريعاً للأمة «لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا» وتخفى ذلك على زيد مراعاة لشعوره وحياء منه مع أن الله تعالى سيبدى هذا الأمر لا محالة ويظهره إلى حيز الوجود.

«وَتَحْشَى النَّاسَ» أن يقولوا تزوج حليلة ابنه «وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَحْشَاهُ» فهو الذى بيده مقاليد الأمور، وهو الذى شرع لك هذا الأمر ووجهك إليه فلا تلتفت إلى مقالة أحد من الناس مادمت فى ممارسة عمل تشريعى لإصلاح الأمة وإقامة العلاقات الأسرية على وضعها الصحيح، وهدم التقاليد المضرة بكيان الأسر والمجتمعات.

هذا هو المعنى العام للآية نصاً وروحاً، بدليل ما قدمنا لك فى الرواية التى حققها الأئمة الأثبات وأثنوا عليها؛ فقد أخرج ابن أبى حاتم من طريق السُّدِّيِّ قال: «بلغنا أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عممة رسول الله (ﷺ)، وكان رسول الله (ﷺ) أراد أن يزوجه زيد بن حارثة مولاه فكرهت ذلك، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله (ﷺ) فزوجها إياه، ثم أعلم الله عز وجل نبيه (ﷺ) بعد أنها ستكون من أزواجه، فكان يستحى أن يأمر زيدا بطلاقها، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس فأمره رسول الله (ﷺ) أن يُمَسِكَ عليه زوجه وأن يتقى الله، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوج امرأة ابنه، وكان قد تبني زيدا (١)، فالذى أخفاه الرسول (ﷺ) فى نفسه هو ما أخبره الله به من أن زينب ستكون زوجته بعد مفارقة زيد لها، ولكن الله تعالى لم يأمر رسوله بابلاغ ذلك للناس وإلا ما تردد (ﷺ) فى إبلاغه ولا أخره ولجهر به فى حينه مهما كانت العواقب التى يتوقعها من إعلانه.

(١) انظر فتح البارى ج ٨ ص ٥٢٣ وارجع إلى ما نقلته لك عن ابن حجر فى هذا الكتاب ص ٥١٧

وقد طلق زيد زوجته في النهاية وهو لا يفكر لا هو ولا زينب فيما سيكون من الأمر بعد ذلك؛ لأن العرف السائد كان يعدّ زينب مطلقة ابن لمحمد لاتحل له حتى بعد إبطال عادة التبنّي في ذاتها، ولم يكن قد نزل إحلال مطلقات الأدعيا، وإنما كان حادث زواج النبي بزینب فيما بعد هو الذى قرر هذه القاعدة بعد ما قوبل هذا القرار بالدهشة والمفاجأة والاستنكار.

وفى هذا ما يهدم كل الروايات التى رويت عن هذا الحادث، والتى تشبث بها أعداء الإسلام قديما وحديثا وصاغوا حولها الأساطير والمفتريات (١).

### الوجه الثانى:

أن الله تعالى قال فى الآية «تُخْفِي فى نَفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ» والذى أبداه الله تعالى فى كتابه هو زواج النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بزینب بعد طلاقها من زيد؛ قال تعالى: «فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا..» ولم يبد الله تعالى فى كتابه ولا فى سنة رسوله شيئاً غير هذا مما يتقوله المغرضون فى هذه القضية.. وقد كان الباعث على إخفائه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لذلك حياةؤه الشديد من زيد إذ كانت زينب فى عصمته ومن الصعب حقاً أن يصرح له بمفارقتها ليتزوجها، وقد كان رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أشد حياءً من العذراء فى خدرها.

ولربما كان رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يرجو من الله أن يخفف عنه هذا التكليف لشدة تحرجه مما سيقوله الناس ولكن كان أمر الله مفعولاً. قال ابن العربى رحمه الله تعالى: «..وَتُخْفِي فى نَفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ» يعنى من نكاحك لها، وهو الذى أبداه لا سواه.

وقد علم النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن الله تعالى إذ أوحى إليه أنها زوجته، لا بد من وجود هذا الخبر وظهوره، لأن الذى يخبر الله عنه أنه كائن لا بد أن

(١) نقل بعض هذا الكلام من ظلال القرآن بتصرف مجلد ٦ ج ٢٢ ص ٢٦ - ٣٠.

يكون لوجوب صدقه في خبره، هذا يدل على براءته من كل ما ذكره  
مستور من المفسرين مقصور على علوم الدين... فإن قيل: فلاى معنى  
قال له (ﷺ): أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ — وقد أخبره الله أنها زوجته  
لازوج زيد؟

قلنا: هذا لا يلزم ولكن لتطيب نفوسكم نفس ما خطر من  
الإشكال فيه:

أنه أراد أن يختبر منه ما لم يعلمه الله به من رغبته فيها أو رغبته عنها  
فأبدى له زيد النفرة عنها والكراهية فيها ما لم يكن علمه منه فى  
أمرها، فإن قيل: فكيف يأمره بالتمسك بها، وقد علم أن الفراق لا بد منه  
وهذا تناقض؟

قلنا: بل هو صحيح للمقاصد الصحيحة لإقامة الحجة ومعرفة  
العاقبة، ألا ترى أن الله يأمر العبد بالإيمان وقد علم أنه لا يؤمن.  
فليس فى مخالفة متعلق الأمر لمتعلق العلم ما يمنع من الأمر به  
عقلاً وحكماً، وهذا من نفيس العلم فتيقنوه وتقبلوه..» (١).

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطى رحمه الله تعالى فى كتابه  
أضواء البيان: «..قد قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع  
البيان التى تضمنها بيان الإجمال الواقع بسبب الإيهام فى صلة  
موصول، وذكرنا أن من أمثلة ذلك قوله: «وَتُخْفَى فى نَفْسِكَ مَا اللّهُ  
مُبْدِيهِ» لأن جملة: الله مبديه صلة الموصول الذى هو ما... فإنه هنا  
أبهم هذا الذى أخفاه (ﷺ) فى نفسه وأبداه الله، ولكنه أشار إلى أن  
المراد به زواجه (ﷺ) بزینب بنت جحش رضى الله عنها، حيث أوحى  
إليه ذلك، وهى فى ذلك الوقت تحت زيد بن حارثة لأن زواجه إياها هو  
الذى أبداه الله بقوله: «فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا».

(١) أحكام القرآن لابن العربى ج ٣ ص ١٥٥٢

وهذا هو التحقيق فى معنى الآية الذى دل عليه القرآن وهو اللائق  
بجنابه (عليه السلام) «...» (١).

## منشأ الخطأ فى تأويل متعلق الخشية:

فمتعلق الخشية على رأى القائلين بالعشق والغرام هو خشيته (صلى الله عليه وسلم) أن  
يطلع الناس على ما فى قلبه من الحب والميل إلى زينب..  
أما على رأى المحققين العارفين بأحوال الأنبياء فمتعلق الخشية  
خشيته (صلى الله عليه وسلم) من وقوع الناس فى عرضه وقولهم: تزوج بزوجة ابنه.

والفرق واضح بين متعلق الخشيتين فى كلتا الحالتين.  
والخشية هنا ليس معناها الخوف إنما معناها الاستحياء كما قال  
ابن فورك (٢)، أى يستحى منهم أن يقولوا تزوج زوجة ابنه ، وأن خشيته  
عليه السلام من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود وشغبهم  
على المسلمين بقوله: تزوج زوجة ابنه بعد نهيهِ عن نكاح حلائل الأبناء  
كما كان، فعاتبه الله تعالى على هذا أو نزهه عن الالتفات إليهم فيما  
أحلّه الله له..

## الوجه الثالث: من الناحية المنطقية:

لو سلمنا جدلاً أن الذى كان يخفيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى نفسه هو  
ميله إلى زينب.. فلماذا عتب الله عليه عدم التصريح بهذا الميل؟، وهل  
الأصل الخلقى أن الرجل إذا أحب امرأة لَعَطَ بين الناس مُشَهَّرًا بنفسه

(١) أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن ج ٦ ص ٥٨٠ ط المدنى بصر.

(٢) محاسن التأويل للقاسمى ج ١٣ ص ٤٨٦٩

وبمن أحبه؟ وبخاصة إذا كان ذا عاطفة منحرفة جعلته يحب امرأة رجل آخر؟ وهل يلوم الله تعالى رجلاً لأنه أحب امرأة رجل آخر فكنتم هذا الحب في نفسه؟ أكان الله تعالى يرفع درجته ويعلي كلمته لو أنه صاغ فيها قصائد الغزل وبالغ في إذاعة غرامياته على الأشهاد؟ إن هذا والله هو السّفَه.. بل الجهل الفادح بكتاب الله وبأحوال أنبياء الله ورسله، إن الله لا يعاتب أحداً على كتمان حب طائش.. إنما الذي أخفاه النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في نفسه تَحَرُّجُه من هذا الزواج المفروض وتراخيه في إنفاذ أمر الله به وخوفه من لَعَطُ النَّاسِ عندما يجدون نظام التَّبْنِي الذي أَلْفُوهُ قد انهار.. ولكن هذا الذي سيقوله الناس هو ما أراد الله هدمه ويجب على النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أن ينفذه دون تَهَيُّبٍ (١).

### الوجه الرابع:

ساق الإمام بن حزم رحمه الله تعالى فهماً آخر للآية وهو من بعض جوانبه وجيه جداً، وقد ساقه في معرض الرد على من زعم صدور المعاصي من الأنبياء، استدلالاً بمثل هذه الآية، حيث قال ابن حزم في كتابه الفصل ما نصه: وإما قوله تعالى «وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ».

فقد أنفنا من ذلك إذ لم تكن فيه معصية أصلاً ولا خلاف فيما أمره الله به، وأن ما كان أراد زواج مباح له فعله ومباح له تركه ومباح له طيه ومباح له إظهاره، وإنما خشي النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في ذلك خوف أن يقولوا قَوْلًا وَيظنوا ظنًّا فيهلكوا كما قال عليه السلام للأَنْصَارِيِّينَ: إنها صفة؛ فاستعظما ذلك فأخبرهما النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أنه إنما خشي أن يُلقَى الشيطان

(١) انظر فقه السيرة للأستاذ محمد الغزالي ص ٧٥

في قلوبهما شيئاً، وهذا الذي خَشِيَهُ عليه السلام على الناس من هلاك أو يأتيهم بظن يظنون به عليه السلام هو الذي يحقِّقه هؤلاء المخدولون المخالفون لنا في هذا الباب من نسبتهم إلى النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) تَعَمَّدُ المعاصي فهلكت أديانهم وضلوا؛ ونعوذ بالله من الخذلان، وكان مراد الله عز وجل أن يبدى مافى نفسه لما كان سلف في علمه من السعادة لأُمَّنا زينب رضی اللهُ عنها.. «انتهى (١)» .

ولاشك أن رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) رؤوف رحيم بأُمَّته فهو يخشى عليها من الوقوع في الهلاك باعتقاد ما يتنافى مع كرامة الأنبياء وعصمتهم.

**الوجه الخامس:**

أن الله تعالى قال في هذه القصة: «مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ» .

وهذا يدل على أنه لم يكن عليه حَرَجٌ في الأمر ولو كان على ما قيل من وقوعها في قلبه ومحبتة طلاق زيد لها لكان فيه أعظم الحرج، ولكن الآية جاءت تشريعاً وفرضاً كما ترى.. فكان لا بد من تنفيذ أمر الله «وَمَا كَانَ أَمْرٌ لِلَّهِ مَفْعُولًا» .

### **الوجه السادس:**

أن زينب كانت بنت عمّة الرسول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) رَبَّيْتُ تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت من والدها لأول الأمر حتى إنه اختارها لمولاه زوجة مع إباؤها وإبائها وأخيتها وعُدَّ هذا منها عصياناً وما زالت كذلك حتى نزل في شأنها قرآن.

فكانه أرغمها على الزواج بزید لما أَلْهَمَهُ اللهُ من المصلحة لها وللمسلمين في ذلك. ولو كان للجمال سلطان على قلبه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لكان أقوى سلطانه عليه جمال البكر في رواه ونصرة جدته، وقد كان يراها

(١) الفصل في الملل والنحل ج ٤ ص ٢٣



ولم يكن بينه وبينها حجاب ولا يخفى عليه شئ من محاسنها الظاهرة، ولكن لم يرغبها لنفسه ورغبتها لمولاه فكيف يمتد نظره إليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لعبد من عبده أنعم عليه بالعتق والحرية (١).

### الوجه السابع:

أن الله تعالى كان يحاسب نبيه (ﷺ) على ترك الأولى ويعاتبه على ذلك.

ألا ترى أن الله تعالى عاتبه على محاولة إرضاء زوجاته بامتناعه عن بعض ما أحل الله له كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (٢).

وليس المراد بالتحريم هنا اعتقاد حُرْمَةِ ذلك لأن الرسول (ﷺ) لا يعتقد ما يخالف شريعته، وإنما المراد بالتحريم هنا الامتناع عن فعل أمر حلال له، إرضاء لبعض زوجاته سواء أكان امتناعه عن العسل الذي كان يأكله عند بعض نسائه أم عن مارية القبطية، والقصة مشهورة في كتب التفسير.

ثم انظر إلى أن الله لم يدع لنبيه (ﷺ) أن يعرض عن ابن أم مكتوم ويتصدى لصناديد قريش طمعاً في إسلامهم حتى عاتبه على ذلك في قوله «عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى..» الخ الآيات.

مع أنه (ﷺ) لم ينصرف عن الأعمى إلا لاشتغاله بما كان يُعْذُهُ في نفسه خيراً للدين، ولم يكن رغبة في جاه ولا شراً إلى مال ولا طموحاً إلى لذة، فلو صحت الرواية التي زعموها في شأن زينب لكان العتاب على تلك التسييحة بمسمع من زينب ثم على الزواج منها بعد الطلاق.

(١) نقل هذا الكلام بتصرف يسير من رسالة للإمام محمد عبده تفسير الفاتحة ص ١٩٣

(٢) سورة التحريم آية

وما كان محمد في علوِّ مقامه ورفعة منزلته من النبوة لتطمح نفسه إلى التلذذ ببيت عمته وزوجة مولاه، ولا أن يُسْمَعها ما يدلّ على شغفه بها ولا أن تضعف عزمته عن قمع شهوته وكبح جماحها، وما كان ربُّ محمدٍ يُعلِّلُ شهوته ويُرِفِّفه من هواه فيما يخالف أمره، وهو الذي نهاه عن أن يمد عينيه إلى ما مَتَّعَ الله به الناس من زهرة الحياة الدنيا، ومن زهرتها النساء.

يقول الإمام محمد عبده في رسالته:

«أما والله لولا ما أدخل الضعفاء والمدلسون من مثل هذه الرواية ما خطر ببال مطلع على الآية الكريمة شئ مما يومنون إليه؛ فإن نص الآية ظاهر جلي لا يحتمل معناه التأويل ولا يذهب إلى النفس منه إلا أن العتاب كان على التمهّل في الأمر والترث به، وأن الذي كان يخفيه في نفسه هو ذلك الأمر الإلهي الصادر إليه بأن يهدم تلك العادة المتأصلة في نفوس العرب وأن يتناول المعول لهدمها بنفسه كما قدر له أن يهدم أصنامهم بيده لأول مره عند فتح مكة»<sup>(١)</sup>.

وقد استغرب القاضي أبو بكر بن العربي ما أثير حول هذا الموضوع من آراء . ثم قال: «.. فأما قولهم أن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) رآها فوقع في قلبه فباطل فإنه كان معها في كل وقت وموضع ولم يكن حينئذ حجاب. فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها في كل ساعة ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج، وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله فكيف يتجدد هوى لم يكن؟ حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة. وقد قال سبحانه وتعالى: «وَلَا تُمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ».

والنساء أفتن الزهرات وأنشر الرياحين، ولم يخالف هذا في

(١) الرسالة السابقة لمحمد عبده ص ٢٠١.

المطلقات فكيف في المنكوحات... المحبوسات»<sup>(١)</sup>.

### الشبهة الرابعة:

قالوا في الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنه رجل شهواني تذوب شخصيته في مخادع النساء.. ولهذا أكثر من الزوجات وحجر على أمته في أربع زوجات كحد أعلى بشروط معينة وأباح لنفسه أكثر من ذلك ولم يكتف بهذا، بل عمل على فسخ زوجة ابنه ومولاه ليتزوجها لأنها كانت بيضاء جميلة.

وهذه الشبهة من مطاعن المستشرقين الحاقدين على الإسلام، وقد تقدم قول المستشرق «إميل درمنغم» في كتابه (حياة محمد): شعر محمد بالعقد الأخير من عمره بميل كبير إلى النساء<sup>(٢)</sup>.  
وقول المستشرق «غوستاف لوبون» حيث قال: «وضعف محمد الوحيد هو حبه الطارئ للنساء».

وقوله: «وأطلق محمد العنان لهذا الحب حتى إنه رأى اتفاقاً زوجة ابنه المتبنّى وهي عارية فوقع في قلبه منها شئ فسرحها بعلها ليتزوجها محمد..»<sup>(٣)</sup>.

ويقول الأستاذ «الحداد» في كتابه القرآن والكتاب.. (ولكن القرآن ينص على أن قلب النبي وهو الرسول البشر «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ» كان يخفق أحيانا للحب والجمال كما يشهد في قوله «وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ» وكما يصف ذاته في حب زينب بنت جحش «وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ»<sup>(٤)</sup>.

والرد على هذه الشبهة بما يلي:

١ — أن المنصفين من المستشرقين يرفضون هذه الفكرة التي

(١) أحكام القرآن لابن العربي ج ٣ ص ١٥٣١ (٢) حياة محمد ص ٢٩٩

(٣) حضارة العرب ترجمة عادل زعير ص ١١٢

(٤) القرآن والكتاب ج ٢ ص ٨٣٢

اختلقها زملاؤهم فى الاستشراق من الحاقدين على رسول الإسلام (ﷺ).. فقد قال الفيلسوف الإنجليزى «توماس كارليل»: «وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلماً وعدواناً، وشد ما نجور ونخطئ إذا حسبناه رجلاً شهوياً لاهم له إلا قضاء مآربه من الملاذ، كلاً فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أياً كانت.

لقد كان زاهداً متقشفاً فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله ، وكان طعامه عادة الخبز والماء وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار.. وإنهم ليدكرون — ونعم ما يذكرون — بأنه كان يصلح ويرفأ ثوبه بيده. فهل بعد ذلك مكرمة ومعجزة. فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام مجتهد فى [طاعة] الله قائم النهار ساهر الليل دائباً فى نشر دين الله... الخ» (١).

ويقول المستشرق «مونتجومرى وات» فى كتابه (محمد فى المدينة): «.. وبالرغم من أن الكتاب المسلمين رَوَوْا فيما بعد قصصاً ممتعة حول حساسية محمد أمام سحر النساء، وبالرغم من أنه ليس لدينا أى سبب للافتراض بأنه كان يهمل تماماً تأثير الجاذبية الجسدية فإنه من الأكيد أنه كان يسيطر تماماً على عواطفه أما الجنس اللطيف، وأنه لم يكن يتزوج إلا إذا كان هذا الزواج مستحسناً سياسياً واجتماعياً..» (٢).

وهذا الكلام على ما فيه اعتراف بسيطرة النبى (ﷺ) على عواطفه تماماً، وحاشا رسول الله أن تكون عواطفه مخالفة للأداب السامية التى جاء بها..

وأقوال المنصفين المستشرقين كثيرة فى هذا جدا كقول

(١) كتاب الأبطال ص ٨٣

(٢) محمد فى المدينة ص ٥٠٦

المستشرق «ول ديورانت» وغيره (١).

٢ — أن حياة الرسول (ﷺ) قبل البعثة وقبل حمل أعباء الرسالة خير شاهد على عفة ضميره وطهارة نفسه مع أنه في عهد الصبا والشباب حيث يشتد سلطان الشهوة ويبلغ غايته في الاستبداد والتحكم في كيان الإنسان، ولكن المحفوظ من سيرة نبي الإسلام (ﷺ) أنه تزوج بالسيدة خديجة رضى الله عنها وهو في الخامسة والعشرين من العمر وكانت — هي — في سن الأربعين وظل معها وحدها لا يضم إليها أخرى حتى تجاوزت السيدة الفضلى الخامسة والستين وتوفيت وهو — (ﷺ) — فوق الخمسين.

ولم يجرؤ أحد من أشد خصومه لئداً أن ينسب إليه دنساً أو يتهمه بريية في هذه الفترة الخصبة الرحبة من عمر الإنسان، بل كان رونق العفاف والشرف يتألق في جبينه حيث سار، ولو أنه أحب التزوج بأخرى ما عاقه مانع من شرع أو عقل أو عادة؛ فإن التعدد كان موجوداً عند العرب مألوفاً في مجتمعاتهم معروفاً في ديانة أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

٣ — أنه صلى الله عليه وسلم لما توفيت خديجة وأحب أن يتزوج لم يكن البحث عن الجمال في مظانّه هو الباعث له على تخير شريكته في حياته أو شريكاته، ولو قد فعل ذلك ما تعرض للوم، بيد أن الباعث الأول كان الارتباط بالرجال الذين آزره في دعوته وعاونوه في رسالته.

فاختار (عائشة) بنت أبى بكر الصديق — على صغر سنّها — واختار (حفصة) بنت عمر — على قلة وسامتها — ثم اختار (أم سلمة) أرملة قائده الذى استشهد فى سبيل الله. وعانت امرأته ما عانت فى

(١) انظر قصة الحضارة — المجلد الثانى ج ٤ ص ٦٤

الهجرة إلى الحبشة وفي الهجرة إلى المدينة.  
ومن قبل هؤلاء كانت معه (سودة) وهي امرأة نزلت عن حظها من  
الرجال لكبرها وعزوفها»<sup>(١)</sup>.

وكذلك زوجاته الأخريات كانت البواعث على زواجه بهن واضحة  
معروفة. وستحدث عن هذا بصورة موجزة فيما بعد.

٤ — أن المتعة في حياة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم تكن غاية يسعى لها، بل  
لم تكن هناك متعة مقصودة لذاتها في حياة رجل لم يسترح يوماً من  
عناء الكفاح الموصول والجهد المضني.

إن حَمَلَة الرسائل الإنسانية المحدودة تعيهم هموم العيش  
ومشكلات الشعوب فلا يحظون بساعة راحة إلا ليستجمعوا قليلاً ثم  
ينهضوا لاستئناف اللغوب.. فكيف بصاحب الرسالة العظمى؟ لقد لقي  
من العرب ما رأيت. ونسأل أيضاً: ما مكان المتعة في حياة رجل عزف  
عنها وهو شاب فكيف يغرق فيها وهو شيخ؟

وإذا أخذنا في اعتبارنا مشاغله وانشغالاته وأعباءه وهمومه المختلفة  
العامّة منها والخاصة، مثل إقامة الصلوات الخمس منذ الفجر حتى  
العشاء وتعليم القرآن الكريم، وتوزيع الصدقات العامة، والفصل في  
المنازعات ومقابلة الوفود، ومراسلة الملوك والحكام، وقيادة المعارك  
العسكرية، وسن التشريع وتأسيس الدولة. وباختصار العناية بكل شيء  
وبكل الناس، ثم بعد ذلك قيام الليل راکعاً أو ساجداً أو قائماً متوجهاً  
إلى السماء، كل هذا يدعونا إلى الاعتقاد بأن الباعث الحقيقي على  
الزواج هو شئ آخر بعيداً كل البعد عن إرضاء الغريزة البهيمية<sup>(٢)</sup>.

وهذا لا يعنى أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير قادر على معاشرّة النساء فإن

(١) انظر السيرة لمحمد الغزالي ص ٤٧١ — ٤٧٢

(٢) انظر مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٥٤

الرسول (ﷺ) له من القوة الجسدية رصيد كبير، وإلى جانب هذا له رصيد أكبر من القوة الروحية والنفسية، وبهذه القوة الروحية والنفسية استطاع أن يحفظ توازنه وأن يغلب دواعي القوة الجسدية، وأن يحمي شبابه من أن تستبد به شهوة أو تغلبه نزوة، ولا شك أنها عناية ربانية حفظته ووجهته لتحمل أعباء الرسالة في أوسع ميادينها..

فالقدره على النكاح من كمال الرجولة.. يقول القاضي عياض..  
«النكاح دليل الكمال وصحة الذكورية»<sup>(١)</sup>.

وقد كان النبي (ﷺ) يؤدي وظيفة المتعة الزوجية مع نسائه على الوجه الأكمل حيث إن ذلك من مقتضيات العلاقة الزوجية، بل لقد روى أنه طاف على نسائه في ليلة واحدة، وليس في هذا غضاضة عليه أو خدش لكرامته أن يستمتع بما أحل الله له من زوجاته الطاهرات، بل إن الإسلام يعتبر قضاء الشهوة من طريق الحلال طاعة وقربة يُثاب على فعله، فقد قال رسول الله (ﷺ): «وفى بضع أحدكم صدقة» قالوا: يارسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟

قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»<sup>(٢)</sup>

وفرق بين كون الرسول (ﷺ) يؤدي هذه المتعة كوظيفة زوجية ويقوم بها على الوجه الأكمل وبين كون المتعة واللذة هي البواعث الأساسية في كثرة نسائه.

كما أن الرسول (ﷺ) يملك نفسه تماماً إذا أراد الامتناع عن هذه المتعة الزوجية، فهذه عائشة رضی الله عنها تروى لنا أن الرسول (ﷺ) كان يُقبلُها وهو صائم ولكنها عللت ذلك بقولها — ولكنه «كان

(١) الشفا ج ١ ص ٦٨

(٢) صحيح مسلم ج ٢ كتاب الزكاة ص ١٩٧ — ١٩٨ فؤاد عبد الباقي.

أَمَلَكُكُمْ لِإِرْبِهِ» أى لشهوته<sup>(١)</sup> ، وقد اعتزل رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) نساءه شهراً.

أبعد هذا يقال إنه رجل شهوانى تذوب شخصيته فى مخادع النساء على أن هناك شهوات أخرى تستبد بالإنسان وتغلى مراجلها فى كيانه.. كشهوة المال والجاه والسلطان ، وكشهوة الطعام واللباس، وصور كثيرة من حياة الترف والزينة التى يقتتل من أجلها الناس: «زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ»<sup>(٢)</sup>

والمعروف من حياة النبى (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) التقشف والشطف الذى لا يطيقه أحد ، ولا نعى بهذا أن الإسلام يعاف الطيبات ، أو أنه يسن للناس تركها كلاً فشريعة الإسلام فى هذا بينة نيرة، وإنما نسرذ الواقع من حياة رجل صدفت نفسه عما يقتتل الناس عليه، إن الرجل قد يترك لأولاده الصغار لعبة يفرحون بها ويختصمون عليها، لأن طبيعة رجولته فى شغل عن عبث الصبية. إن بعض المخترعين والمفكرين يذهلون عن الطعام المهياً لهم، استغراقاً فيما ملك عليهم مشاعرهم من العمل والتفكير الجاد، لقد كان النبى (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يعيش هو وأهله على قاعدة (ماقل وكفى خير مما كثر وألهى)<sup>(٣)</sup> .

والمطلع على أحوال النبى (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يعرف ذلك تماماً.

(١) أكثر المحدثين يروونه بفتح الهمزة والراء يعنون الحاجة وبعضهم يرويه بكسر الهمزة وسكون الراء، وله تأويلان : أحدهما: أنه الحاجة، يقال فيها: الأرب، والإرب، والإرْبَةُ والثانى: أرادت به العضو وعنت به من

الأعضاء الذكر خاصة . انظر النهاية لابن الأثير ج ١ ص ٣٦

(٢) سورة آل عمران آية ١٤

(٣) حديث شريف أخرجه الإمام أحمد ج ٥ ص ٢٩٧ والطيالسى ٩٧٩ وانظر أيضاً: فيض القدير ج ٥ ص ٤٦١ حيث قال عنه الهيثمى. رجال الصحيح.





## تعدد زوجات النبي (ﷺ)

لست أريد هنا أن أشرح الأبعاد والبواعث، وأستقصى الحكم والأسرار، لتعدد زوجات النبي (ﷺ)، فإن هذا يحتاج إلى مؤلف خاص، وهو موضوع ذو جوانب مختلفة، ولكنني أريد كما وعدت قبلاً أن أشير إليه إشارة موجزة تكشف عنه بعض الجوانب وتبين أن تعدد زوجات النبي (ﷺ) لم تكن بواعثه قائمة على الشهوة الجامحة ولا الغريزة الملتهبة، وإنما كان هذا التعدد، لأسباب شرعية واجتماعية وسياسية وإنسانية.. مما يخدم الدعوة الإسلامية ويكون سبيلاً إلى ترسيخها في أذهان الناس يقول «ول ديورانت» في شأن زيجات النبي (ﷺ) مانصه:

«...لقد كان بعض زيجاته من أعمال البر والرحمة بالأرامل الفقيرات اللاتي توفى عنهن أتباعه أو أصدقائه... وكان بعضها زيجات سياسية كزواجه بحفصة بنت عمر الذي أراد به أن يوثق صلته بأبيها، وكزواجه من ابنة أبي سفيان ليكسب بذلك صداقة عدوه القديم، وربما كان الدافع إلى بعضها أمله في أن يكون له ولد» (١) ..  
وهناك نقطتان جوهريتان يجب ألا نغفلها وأن نضعها نصب أعيننا، حينما نتحدث عن تعدد زوجات النبي (ﷺ).

النقطة الأولى: أن الرسول (ﷺ) لم يعدد زوجاته إلا بعد بلوغه سن الشيخوخة؛ أي بعد أن جاوز من العمر الخمسين.  
النقطة الثانية: أن جميع زوجاته الطاهرات ثيبات — أرامل — ما عدا

(١) قصة الحضارة المجلد الرابع ج ٢

عائشة رضی الله عنها فهي الوحيدة من بين نساءه التي تزوّجها وهي في حالة الصبا والبكارة (١).

فلو كانت بواعث التعدد هي الشهوة وإرضاء الغريزة لاختار البنات الأبيكار، وطلب الجمال في مظانّه بين المهاجرين والأنصار، بل عند غيرهم حتى من ألد أعدائه، فقد كانوا يرون فيه الرجل الكامل العظيم الذي تُخطبُ ساحته ويحتمي بحماه.

والآن ، لنستعرض أسماء زوجات الرسول (ﷺ) بعد خديجة رضي الله عنها على عجل لنرى بعض البواعث لزواج النبي (ﷺ) بهن:

#### ١ — «سودة بنت زمعة»

وهي أرملة السكران بن عمرو العامري القرشي، وكان من السابقين إلى الإسلام، الذين تحملوا في سبيله الأذى، والذين هاجروا إلى الحبشة بعد أن أمرهم النبي (ﷺ) بالهجرة إليها عبر البحر، وقد أسلمت سودة وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة، وعانت من المشاق ما عانى ، ولقيت من الأذى ما لقي.

وقد توفى عنها زوجها بعد الرجوع من هجرة الحبشة الثانية، فأصبحت أرملة وحيدة، لامعيل لها ولا معين سوى الله تعالى. ولو عادت إلى أهلها — بعد وفاة زوجها — لأكرهوها على الشرك أو عذبوها عذابا نكرا. فاختار النبي (ﷺ) كفالتها، وضمها إليه وهي أرملة مُسنّة بلغت من العمر الخامسة والخمسين، وهذا منتهى الكرم والإحسان من رسول الله (ﷺ) ..

#### ٢ — «عائشة بنت أبي بكر الصديق»:

وقد اختارها رسول الله (ﷺ) على صِغَر سنّها، تقديرا لصحبة أبيها، ورغبة في مصاهرته، لأنه كان وزيره الأول، وصاحبه المخلص الأمين،

(١) انظر زاد المعاد ج ١ ص ١٠٦.

وعائشة هي البكر الوحيدة التي تزوجها رسول الله (ﷺ)، ولم يكن الباعث على زواجه بها هو الحب والعاطفة، لأنه خطبها (ﷺ) إلى أبيها وهي في سن مبكرة جداً كما في صحيح البخاري ومسلم، خطبها وهي في السادسة من عمرها ودخل بها، هي في التاسعة من عمرها (١). وعلى هذا فليس مما يقبله العقل أو يرضاه المنطق أن يكون قد أحبها وهي في هذه السن الصغيرة لمجرد ما يحبه الرجل من النساء. فأما ما صح من أن النبي (ﷺ) كان يحب عائشة، فقد نشأ ذلك بعد الزواج لا قبله ولا حينه.

ولا ضير في محبته لها مادامت زوجته، لأن ذلك النوع من الحب إنما هو العاطفة المستقيمة والنظرة المهدبة؛ قال تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً» (٢).

### ٣ — «حفصة بنت عمر بن الخطاب»

وهي أرملة (خنيس بن حذافة الأنصاري) الذي استشهد في بدر بعد أن أبلى بلاءً حسناً، ولم يكن زواج النبي (ﷺ) بها مبنياً على حب أو عاطفة، وهذا بشهادة أبيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد دخل عليها يوماً عندما بلغه أنها تؤذى رسول الله (ﷺ)، فقال: يا حفصة، أقد بلغ من شأنك أن تؤذى رسول الله (ﷺ)؟ والله لقد علمت أن رسول الله (ﷺ) لا يحبك، ولولا أنا لطلقك رسول الله (ﷺ) (٣). وقد تزوجها رسول الله (ﷺ) على قلة وسامتها جبراً لخاطر أبيها عمر لمكانته عنده، ولكي يساوى بينه وبين أبي بكر الصديق في تشریفهما بمصاهرته (ﷺ).

(١) انظر طبقات ابن سعد ج ٨ ص ٥٨ وزاد المعاد ج ١ ص ١٠٦

(٢) سورة الروم آية ٢١ (٣) انظر تفسير القرطبي ج ١٨ ص ١٩٠ ص دار الكتاب.

٤ — «زينب بنت خزيمة».

وهي أرملة (شَهِيد أُحُد) عبيدة بن الحارث، وقد استشهد زوجها وهي تقوم بواجبها في إسعاف الجرحى وتضميد جراحهم، ولم يشغلها استشهاد زوجها عن القيام بواجبها.

ولما علم النبي (ﷺ) بصبرها وثباتها، وأنه لم يعد هناك من يعولها خطبها النبي (ﷺ) لنفسه وأواها وجبر. خاطرها بعد أن انقطع عنها الناصر والمعين، ولم تكن ذات جمال، وإنما عرفت بطيبتها وإحسانها حتى لُقِّبَتْ بِأُمِّ الْمَسَاكِينِ، وقد توفيت بعد سنتين من زواج النبي (ﷺ) بها فكانت بعد خديجة الوحيدة من أزواج النبي (ﷺ) التي توفيت قبله.

٥ — «زينب بنت جحش»

وهي التي نتحدث عنها في هذا البحث... وقد تزوجها رسول الله (ﷺ) لحكمة تشريعية ظاهرة، وهي إبطال التبنّي وما يتعلق به من أحكام كما تقدم...

٦ — «أم سلمة هند بنت أمية»

وهي أرملة (شَهِيد أُحُد) عبد الله بن عبد الأسد الذي هاجر معها إلى الحبشة. ولما استشهد في غزوة أُحُد بقيت هي وأيتامها الأربعة بلا كفيل فلم ير عليه السلام عزاء ولا كافل لها ولأولادها غير أن يتزوج بها، ولما خطبها لنفسه اعتذرت إليه وقالت: «إني مسنة وإني أم أيتام وإني شديدة الغيرة».

فأجابها النبي (ﷺ): أما الأيتام فأضممهم إليّ وأدعو الله أن يذهب عن قلبك الغيرة. فتزوجها (ﷺ) ليعلم المجاهدون من المسلمين أنهم إذا استشهدوا في سبيل الله فلن يتركوا وراءهم نسوة وذرية ضعافاً يخافون عليهم العيلة والضياع؛ ولقد ضرب النبي (ﷺ) المثل الأعلى في هذا التكافل الاجتماعي، ووجه أصحابه إلى ذلك.

٧ — «أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان»:

وهي أرملة «عبد الله بن جحش» الذي توفي بالأرض الحبشية وضاقت الأرض بما رحبت بالسيدة أم حبيبة رضي الله عنها.

هاجرت إلى أرض الحبشة، فارة بدينها هاربة من أذى قريش، إنها بنت أبي سفيان بن حرب سيد قريش وقائدها في محاربة الإسلام عشرين عاماً أفان أسلمت وأرغمت أباهما وقومها في ذات الله ثم هاجرت إلى الحبشة تاركة مكة حيث يسود أبوها وتعلو كلمته، تترك للإهانة وتسلم لليأس والضياع؟

أترى مثل هذه السيدة إذا مات عنها زوجها تترك لمن يخذل مكانتها؟ لقد ضمها النبي (ﷺ) إلى زوجاته إعزازاً لشأنها وتقديراً لصنيعها.

٨ — «جويرة بنت الحارث».

وهي أرملة «مسافع بن صفوان المصطلقى» وكان أبوها زعيم بنى المصطلق.

وقد انتهت حربه مع المسلمين بهزيمة نكراء، وكادت قبيلته تهون وتذل عقب هذه الهزيمة، فواسى النبي (ﷺ) القائد الهزوم ثم أصهر إليه حتى يشعر المسلمين بما ينبغي لأتباعه من كرامة ومعونة.

وقد وقع ما أحبه النبي (ﷺ)، فعادت الحرية إلى القبيلة رجالاً ونساء، إذ تحرّج المسلمون أن يسيئوا إلى قوم تزوّج النبي (ﷺ) ابنتهم (١). وهذه من أوضح الحكم السياسية في استقطاب الخصوم ومسح الجراح التي ألمت بهم فلم يلبثوا أن صاروا من جنود الإسلام وحملته رسالته.

٩ — «صفية بنت حبي بن أخطب»:

(١) انظر فقه السيرة لمحمد الغزالي ص ٤٧٧

وهي أرملة (كنانة بن أبي الحقيق) كان أبوها ملك اليهود. وفي الصراع بين بنى إسرائيل والإسلام هلك أبوها وأخوها وزوجها، ووقعت في سهم جندي من جنود المسلمين لا يعرف إلا أنها أسيرة حرب من حقّه بملك اليمين أن يسلك معها كيف يشاء.

فإذا رُقَّ النبي (ﷺ) لحالها ووهبها حريتها، ثم جبر كسرهما، وقدر ماضيها فتزوجها، ليستطيع بإحسانه وإكرامه تطيب خاطرهما، فهل ذلك مما يُلام عليه؟

١٠ — «ميمونة بنت الحارث الهلالية»:

وهي آخر امرأة تزوّجها رسول الله (ﷺ)، وكان زواجه بها في أواخر السنة السابعة من الهجرة إبان عمرة القضاء، بإشارة من العباس بن عبد المطلب عم النبي (ﷺ) وقد زوجها العباس رسول الله (ﷺ) إذ كان يلي أمرها كما ذكره ابن سعد وغيره من أصحاب السّير (١).

وقد تزوج النبي (ﷺ) بها، فكان زواجه خيراً وبركة إذ تقرب إلى الهلاليين، فأكبروا في رسول الله (ﷺ) هذه المروءة، ونصروه وساروا من حيث سار.

وميمونة رضى الله عنها هي خالة عبد الله بن عباس، وكانت مجاهدة شجاعة، تقف في صفوف المجاهدين تسعف الجرحى وتداوى المرضى، كما حدث في غزوة تبوك، ويقال هي أول امرأة ألفت فرقة نسائية لإسعاف الجرحى في ميادين القتال، وقد أصابها في جهادها سهم من سهام الأعداء وهي تحمل الماء للمصابين فكاد يقتلها لولا عناية الله ولطفة.

فهل تجد أثراً للهوى والشهوة في هذا الزواج الكريم أو هي الرحمة والمروءة والعطف والإحسان في أوسع ميدان وأجمل صورة؟

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٨ ص ١٣٢

هذه لمحة موجزة عن تعدد زوجات النبي (ﷺ) مع الإشارة إلى بعض الحِكم ، ولم نتعرض بالتفصيل إلى الحِكم التشريعية والتعليمية والاجتماعية، والسياسية والإنسانية في تعدد زوجات النبي (ﷺ)، لأننا سنخرج عن موضوعنا إلى تفصيلات أخرى متشعبة وهي بحاجة إلى دراسة مستقلة، على أن تعدد الزوجات بشكل عام لم يكن بدعاً فقد كان في الجاهلية منتشراً، كما كان في الشرائع السابقة، فهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام كانت عنده زوجته سارة ثم تزوج (هاجر) أم إسماعيل عليهما السلام.

وهذا داود وسليمان كانت لكل منهما مجموعة من النساء ، فنظام التعدد في الإسلام لم يكن نظاماً جائراً ولا خارجاً عن المألوف عند الأمم والشعوب، بل إن الإسلام حدّد ونظم وجعل التعدد منوطاً ببواعثه مثقلاً بتبعاته؛ فالعُرم على قدر العُثم والمتع المتيسرة تتبعها حقوق ثقيلة، وللاستاذ «محمد الغزالي» كلام جيد في هذا المقام؛ إذ ناقش الموضوع مناقشة منطقية فقال:

«إن النسبة بين عدد الرجال والنساء إما أن تكون متساوية، وإما أن تكون راجحة في إحدى الناحيتين، فإن كانت متساوية أو كان عدد النساء أقل فإن تعدد الزوجات لا بد أن يختفى من تلقاء نفسه، وستفرض الطبيعة توزيعها العادل قسراً ، ويكتفى كل امرئ — طَوْعاً أو كَرْهاً — بما عنده.

أما إذا كان عدد النساء أُرْبَى من عدد الرجال فنحن بين واحد من ثلاثة:

- ١ — إما أن نقضى على بعضهن بالحرمان حتى الموت.
  - ٢ — وإما أن نُبيح اتخاذ الخليلات ونقر جريمة الزنا.
  - ٣ — وإما أن نسمح بتعدّد الزوجات.
- ونظن أن المرأة — قبل الرجل — تأبى حياة الحرمان وتأبى فراش



الجريمة والعصيان. فلم يبق أمامها إلا أن تشرك غيرها في رجل يحتضنها ويتنسب إليه أولادها ، ولا مناص بعدئذٍ من الاعتراف بمبدأ التعدد الذي صرح به الإسلام..»<sup>(١)</sup>

وهذا الاعتراف واضح في مقالات المستشرقين ، يقول الأستاذ «غوستاف لوبون»: «إن تعدد الزوجات على مثال ماشرعه الإسلام من أفضل الأنظمة وأنهضها بآداب الأمة التي تذهب إليه وتعتصم به وأوثقها للأسرة عقداً وأشدها لأصرتها أزرًا. وسييله أن تكون المرأة المسلمة أسعد حالا وأوجه شأنًا وأحق باحترام الرجل من أختها الغربية. ثم قال «.. ولست أدري على أى قاعدة يبنى الأوربيون حكمهم بانحطاط ذلك النظام — نظام تعدد الزوجات — عن نظام التفرد عند الأوربيين المشوب بالكذب والنفاق؟ على حين أرى أن هنالك أسبابا تحملى على إثثار نظام التعدد على ما سواه، وليس عجيباً بعد ذلك أن نرى الشرقيين الذين ينتجعون إلينا وينتقلون بين مدائننا يمارون من قسوتنا فى الحكم على نظام تعدد الزوجات»<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*

(١) فقه السيرة لمحمد الغزالي ص ٤٦٦

(٢) محمد رضا فى كتابه — محمد رسول الله — ص ٣٦٥ ط دار الكتب العلمية بيروت.

## «عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»

كُنْتُ أريد أن أضْمَنَ مقدمة هذا الكتاب عصمة الأنبياء ، وأبْحَثُ هذه الناحية بشكل واضح مفصَّل لتكون مرتكزاً للموضوع الذي أتحدَّث عنه، ولكنني خشيت أن يصطدم القارئ الكريم منذ البداية بموضوع فكريّ تختلف فيه وجهات النظر بين أصحاب المِلَل والنحل، وقد يحدث الخلاف في بعض قضاياها بين أبناء الملة الواحدة لتفاوت الافهام والمدارك، وتباين الأغراض والمقاصد، فيتشتت ذهن القارئ أمام ما نريد تحقيقه من عصمة الأنبياء من جانب. وما نريد بحثه من الناحية التاريخية والعلمية في قصة زينب من جانب آخر ، فقد آثرت تأخير بحث موضوع عصمة الأنبياء، وجعلت له عنواناً مستقلاً، يكون بمثابة الخاتمة لهذا البحث، وسأتطرق إلى قصة داود عليه السلام مع زوجة أوريا، بشئ من التنبيه لمشابقتها من وجوه كثيرة بما أثير في قصة زواج النبي (ﷺ) بزَيْنَب بنت جحش رضي الله عنها.

أما عصمة الأنبياء، فقد قامت البراهين القطعية على عصمتهم من الكذب فيما يبلِّغون عن الله تعالى، من أمور الرسالة، وهذا باتفاق أهل الشرائع، كما قامت البراهين على عصمتهم من الكفر قبل النبوة وبعدها باتفاق أهل الشرائع أيضاً.

### المعاصي نوعان: كبائر وصغائر.

فأما الكبائر عموماً والفواحش الموبقات منها خصوصاً، فالجمهور من أهل المِلل والنحل يتفقون على استحالة وقوعها من الأنبياء عمداً سواء قبل النبوة أو بعدها.

وأما الصغائر، فهي محل خلاف وبحث عند العلماء، والبحث فيها من الأمور الاجتهادية.

وجمهور أهل السنة، يميلون إلى القول بعصمة الأنبياء من الصغائر عمداً ، خصوصاً بعد البعثة.

وظواهر نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة، تدل على عصمة الأنبياء عن ارتكاب الذنوب عمداً.

والأدلة على ذلك كثيرة ، نورد منها مايلي:

١ — أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، هم الصفوة من الخلق، وقد اختارهم الله تعالى، لحمل رسالاته وإبلاغها للناس، ولا يجتمع الاصطفاء وارتكاب المحظورات ، وقد أشار الله سبحانه إلى هذا الاصطفاء في قوله تعالى بعد تعداد الأنبياء:

«...إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ، وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (١)».

٢ — أن الله تعالى جعلهم قُدوةً حسنةً لأمتهم، وأمر باتباع طريقهم والسير على نهجهم، فقال تعالى: « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ، فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ..» (٢).

وقال تعالى: « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ...» (٣).

٣ — لو صدر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، مخالفة لأمر الله تعالى، باقتراف الذنوب عمداً، لاستحقوا الذم عاجلاً، والعقاب آجلاً ، ولكن الله تعالى أثنى عليهم، وأمر بالاعتداء بهم ، فقال تعالى — بعد ذكر أسماء أنبيائه —: « أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ

(١) الآية رقم ٤٦ و ٤٧ من سورة ص.

(٢) الآية رقم ٣١ من سورة آل عمران. (٣) الآية رقم ٢١ من سورة الأحزاب.

والتَّبَوُّة... أَوْلَيْكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهَدَاهُمْ اِقْتَدِهْ..» (١).

٤ — أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ، وَنَهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، فَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ» (٢).

وَأَنْبِيَاءَ اللَّهِ تَعَالَى أَوْلَى النَّاسِ بِاللِّتِمَامِ، بِمَقْتَضَى الْأَوْامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالتَّقْيِيدِ بِالتَّوْجِيهَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، وَإِلَّا فَمَا وَجَّهَ تَخْصِيصَهُمْ بِالرِّسَالَةِ، وَاتِّمَانَهُمْ عَلَيْهَا.

٥ — أَنَّ الْغَوَايَةَ مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَزَوَاتِ الْهَوَى، وَالشَّيْطَانَ لِاسْطِقَانِ لَهُ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ، وَفِي مَقْدَمَتِهِمْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ إِبْلِيسَ: «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ» (٣).

وَقَدْ صَرَّحَ اللَّهُ تَعَالَى، بِقَوْلِهِ: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ..» (٤).

٦ — أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى، صَرَّحَ — وَهُوَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ — بِأَنَّهُ يَعْلَمُ حَيْثُ يَضَعُ الرِّسَالَةَ، وَيُودِعُ الْأَمَانَةَ، فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» (٥).

\*\*\*

(١) الآية رقم ٨٩ و ٩٠ من سورة الأنعام. (٢) الآية رقم ٩٠ من سورة النحل.

(٣) الآية رقم ٨٢ و ٨٣ من سورة ص. (٤) الآية رقم ٤٢ من سورة الحجر.

(٥) الآية رقم ١٢٤ من سورة الأنعام.



## نماذج من الاعتراضات على عصمة الأنبياء، والرد عليها

١ — قد يقول قائل: إن الله تعالى صرّح بمعصية آدم ، في محكم كتابه، فقال سبحانه: «وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى» (١).

ويمكننا الإجابة عن هذا الاعتراض ، بما يلي:

أ — أن الذي بَدَّر من آدم عليه السلام، من مخالفة كان عن طريق النسيان دون عزم، وذلك لقوله عز وجل: « وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا» (٢)

فقد فرق بين فعل المعصية عمداً ، وبين فعلها نسياناً.

ب — أن ما صدر من آدم عليه السلام، كان قبل النبوة، لقوله تعالى: «ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى» (٣).

فهذه المعصية قديمة ، إذ كانت عندما كان آدم عليه السلام في الجنة، ثم أُهبطَ منها ، للابتلاء ، فاستقام على أمر الله ، وندم على ما بدر منه ، فاجتباه الله بالنبوة وتاب عليه، وهداه إلى صراطه المستقيم.

٢ — وقد يقول قائل آخر: إن موسى عليه السلام، قد قتل رجلاً، لم يؤمر بقتله، كما أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، حيث قال: « وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ..» (٤)

والجواب عن هذا الاعتراض بما يلي:

أ — أن ذلك القتل حدث من موسى عليه السلام، من غير قصدٍ،

(١) الآية رقم ١٢١ من سورة طه. (٢) الآية رقم ١١٥ من سورة طه.

(٣) الآية رقم ١٢٢ من سورة طه. (٤) الآية رقم ١٥ من سورة القصص.

لأنه وكزه بيده، واليد ليس من شأنها أن تقتل غالباً، ولكن إرادة الله غالبية، وقضاؤه نافذ لا محالة.

ب — أن موسى عليه السلام فعل ذلك قبل النبوة، بدليل أنه ندم على ما فعله، فاستغفر ربه، وفرّ يطلب النجاة، فجاه الله تعالى، ثم إنه رأى ناراً من جانب الطور، كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله سبحانه:

«وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ، إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى، فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى، إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى، وَأَنَا أَخْتَرُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى» (١).

وكل ما وقع من الأنبياء عليه الصلاة والسلام مما ظاهره يوهم المخالفة والعصيان، مجاب عنه في كتب العقائد بالتفصيل.

هذا، مع اتفاق العلماء على أنه لا يصدر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ما يشين كرامتهم، قبل النبوة وبعدها، وبخاصة فيما يتعلق بالمروءة والشرف في الأخلاق والأعراض.

وعلى هذا الأساس تكلمنا عمّا أثير من حب الرسول (صلى الله عليه وآله)، لزينب وهي في عصمة زيد بن حارثة (رضي الله عنه)، ورددنا تلك الروايات الدخيلة التي تمس كرامة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتقذح في عصمتهم. وأما الخطأ والنسيان: فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يخطئون فيما يبلغونه عن الله تعالى من الوحي، ولا ينسونه كما قال تعالى: «سُنْقِرُوكَ فَلَا تَنْسَى» (٢).

(١) الآيات من ٩ — ١٣ من سورة طه.

(٢) الآية رقم ٦ من سورة الأعلى.

أما الخطأ في الاجتهاد، والنسيان الذي لا يطول ، فقد يقع هذا منهم عليهم الصلاة والسلام، ولكن الله سبحانه وتعالى، ينبههم إلى هذا الخطأ والنسيان، ويُصَوِّبُ لهم ما وقعوا فيه، لضمان جريان التشريع على وفق الأسس والأصول التي رضيها الله لخلقه، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما قصه الله تعالى في أسرى بدر.

\*\*\*



## الشبهات التي وردت في حق داود عليه السلام والرد عليها

تكلّمنا على الشبه والمفتريات التي أثّرت عن حب النبي (صلى الله عليه وآله) لزَيْنَب (رضي الله عنها) ، وهي في عصمة مولاة زيد بن حارثة. ونود الآن أن نشير إلى بعض الشُّبُه والمفتريات التي أثّرت عن حب داود (عليه الصلاة والسلام) لزوجة قائده: «أوريا الحثي»، لتشابه القصتين الخرافيتين من بعض الوجوه. ولسنا بحاجة إلى إقامة الأدلة على محاولة أهل الفسوق والعصيان، تشويه سمعة الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، والطعن في عصمتهم، لأن الصراع بين الحق والباطل لا ينقطع ، ولكننا نريد أن نكشف عن بعض الجوانب الخطيرة في قبول مثل هذه المفتريات ونشرها بين أبناء المسلمين.

\*\*\*

## قصة داود عليه السلام مع زوجة أوريا الحثي

لقد رويَتْ في هذه القصة أخبار متعددة وآثار متضاربة، معظمها من الأخبار الإسرائيلية، التي افعل معظمها اليهود وأفكوها، للطعن في عصمة نبي الله داود(عليه الصلاة والسلام)، وشاعت وذاعت هذه الأخبار بين الناس، حتى أصبحت تراثاً مُلْتَمَثٌ به الكتب، وشوّهت به الحقائق، وأصبحت تناقله الأجيال عن الأسلاف، على أنه تراث يرجع إليه في معرفة أحوال الأنبياء، وتاريخ حياتهم وسيرهم، وكأنه جاء مدعماً بالأسانيد المتصلة.

وهذا الموضوع جدير بالنظر فيه من جوانب متعددة.

١ — أولها — : من ناحية الأخبار المروية، بأسانيدها المختلفة، وذلك بدراسة الأسانيد، وعرضها على موازين الجرح والتعديل، لمعرفة ما إذا كانت هذه الأخبار، مما يقبل مثله في إصدار بعض التفسيرات التاريخية للقضايا الكبرى المتعلقة بعصمة الأنبياء وكراماتهم.

٢ — ثانيها — : أن السند، قد يكون متصلاً إلى الصحابة(رضي الله عنهم)، أو التابعين ، ولكنهم نقلوا ذلك عن أهل الكتاب، فيما يروونه من أخبارهم.

وموقفنا نحن المسلمين من هذه الإسرائيليات، يتركز على الأسس التالية:

١ — ماورد من الأخبار الإسرائيلية، وله شاهد من القرآن الكريم، أو السنة الصحيحة، فإنه يقبل ، لأنه اقترن بمصدر صحيح، فترجح صدقه.

ب — ماورد من الأخبار الإسرائيلية، مناقضاً لحقائق الإسلام ومقرراته،

فإنه يُردُّ مالم يَقم دليل صحيح، من الكتاب أو السنة، على اختصاصه بأهل الكتاب، أو نسخه.

فإن ثبت اختصاصه، بأهل الكتاب، أو نسخه فإنه يُقبل على أنه تدرُّج في التشريع، أو أنه أثرٌ يُمثَّلُ وضعاً معيَّناً، في زمنٍ مُعيَّن.

ج — وما عدا ذلك من الأخبار الإسرائيلية، فإنه يُقبل على أنه أثرٌ يُستأنس به، وتباح روايته ، ولا يعتمد عليه، كما روى البخاري (١) بسنده عن أبي هريرة (رضي الله عنه) ، قال : «كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: « لا تصدِّقوهم ولا تكذِّبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إليكم» (٢).

وأباح النبي ﷺ ، الرواية عن بنى إسرائيل فيما لا يتعارض، مع قواعد الإسلام، فقال (ﷺ): «حَدِّثُوا عن بنى إسرائيل ولا حَرَجَ (٣)». يُبَدُّ أن هناك أخباراً ، مرويةً عن بنى إسرائيل ، وهي لاتطابق مرفوضة سنداً وامتناً، لأننا نجزم بعدم صحتها، وإن وردت في الكتب المقدسة عندهم، وأذكر على سبيل المثال ما نحن بصدده من قصة داود عليه السلام مع زوجة أوريا الحثي فقد ورد في « الكتاب المقدس » المجلد الأول — سفر الملوك الثاني — الفصل الحادي عشر (الإصحاح)، ما نصه: «وأما داود، فبقى في أورشليم، وكان عند المساء، أن داود قام عن سريره وتمشَّى على سطح بيت الملك، فرأى امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة جداً، فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقيل له:

(١) في صحيحه — باب قول النبي ﷺ: « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ». — كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

(٢) انظر : فتح الباري ج ١٣ ص ٣٣٣ ، ط المكتبة السلفية.

(٣) أخرجه أبو داود عن أبي هريرة، وقال السخاوي: أصله صحيح . كما في فيض القدير للمناوي ج ٣ ص

هذه بَشَّابِع بنت أليعام ، امرأة أوريا الحثي، فأرسل داود رسلاً وأخذها، فدخلت عليه فدخل بها، وتطهرت من نجاستها، ورجعت إلى بيتها، وحملت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود، وقالت : إنني حامل... وتمضى القصة قائلة: «فلما كان الصباح كتب داود إلى يُوَّاب كتاباً وأرسله بيد أوريا، وكتب في الكتاب، قائلاً: وَجَّهوا أوريا إلى حيث يكون القتال شديداً، وارجعوا من ورائه، فيضرب ويموت، وسمعت امرأة أوريا، أن زوجها قد مات فناحت على بعلها، ولما تَمَّت أيام مناحتها ، أرسل داود وضمَّها إلى بيته، فكانت زوجة له، وولدت له ابناً، وساء ما صنعه داود في عيني الرب»<sup>(١)</sup>.

فأنت ترى في هذا النص الوارد في الكتاب المقدس حُكماً، بارتكاب نبي الله داود(ﷺ) . جريمة الزنى، وأن هذه المرأة حملت منه سفاحاً، ولم تقف القصة عند هذا، بل ذكرت أن داود(عليه السلام) عمل على قتل زوج تلك المرأة، ليستمتع بها بعده!! سبحانك هذا بهتان عظيم.

ومعظم الأخبار التي رويت في شأن داود(عليه السلام) مع زوجة أوريا، مروية عن أهل الكتاب، وبخاصة اليهود. وقد وردت هذه القصة في بعض التفاسير ، ونبه عليها معظمهم . فهذا ابن جرير الطبري ، يروي في تفسيره هذه القصة، فيقول: «قال وهب بن منبه: ثم أمر صاحب جيشه، فيما يزعم أهل الكتاب، أن يقدم زوجها للمهالك»<sup>(٢)</sup> .. يعني بذلك أوريا الحثي. وقال الحافظ ابن كثير — عند ما فسر الآيات الواردة في حق داود — «ها هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم، حديث

(١) انظر: الكتاب المقدس — العهد القديم — المجلد الأول — سفر الملوك الثاني، الفصل الحادي

عشر، مطبعة — المرسلين اليسوعيين . بيروت ١٨٨٢م

(٢) انظر: تفسير الطبري: ج ٢٣ ص ٨ ، ط الحلبي.

يجب اتباعه» (١).

وقال القاضي عياض في الشفاء «وأما قصة داود عليه الصلاة والسلام، فلا يجب أن يُلتفت إلى ما سطرَ فيها الإخباريون، عن أهل الكتاب الذين بدّلوا وغيروا ونقله بعض المفسرين، ولم ينص الله على شيء من ذلك، ولا ورد في حديث صحيح» (٢).

وقال البرهان البقاعي في تفسيره، ما نصه:

«وتلك القصة وأمثالها، من كذب اليهود».

ثم قال: «وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمّدون ذلك في حق السيد داود عليه السلام، لأن عيسى عليه السلام من ذريته، ليجدوا سبيلاً إلى الطعن فيه» (٣).

\*\*\*

ويمكن أن نلخص الشُّبه المتعلقة بهذا الموضوع فيما يلي:

١ — ما ورد من الآثار التاريخية، في كتب أهل الكتاب، أو غيرها من المصادر، وتذكر هذه الآثار، أن داود (عليه السلام)، كان له تسع وتسعون امرأة، وأنه رأى زوجة أوربا الحثي، فرغب في ضمها إليه وعمل على ذلك، فأكمل بها المائة.

٢ — أن الله تعالى أشار إلى هذه القصة في القرآن الكريم، فقال سبحانه: «وهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيَّ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَيَّ بَعْضٌ فَاخْرَجْنَا بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ وَاهْدُنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ، إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ

(١) انظر: تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣١

(٢) انظر: الشفاج ٤ ص ١٩٢

(٣) انظر: تفسير البقاعي. النسخة المخطوطة في مكتبة الأزهر بالقاهرة، ج ٥ ورقة ٤٣٤، الرقم الخصوصي

وَتَسْعُونَ نَعْجَةً، وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ، فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ،  
 قَالَ: لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ  
 لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا  
 هُمْ، وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ، فَغَفَرْنَا لَهُ  
 ذَلِكَ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ، يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي  
 الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ  
 اللَّهِ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ، لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ  
 الْحِسَابِ.» (١).

ويَدْعَى مثيرو هذه الشُّبهه، أن في هذه الآيات، تعريضاً بداود(عليه  
 السلام)، إذ جاءه ملكان في صورة خصمين ، بَعَى أحدهما على  
 الآخر، وأن المراد بالنَّعَاج في الآيات، نساء داود(عليه السلام)، والمراد  
 بالنعجة الواحدة، زوجة أوريا؛ ويستدلون على هذا بهذه الآيات ،  
 فيقولون : إن الله تعالى صرَّح بأن داود(عليه السلام)، تعرض للفتنة « وَظَنَّ  
 دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ » ؛ ولهذا استغفر ربَّه، والاستغفار يكون بعد الخطيئة،  
 كما نهاه الله عن اتباع الهوى. وغير ذلك من الشُّبهه التي تُثار في هذا  
 المقام، في حق نبي الله داود(عليه السلام).

ونلخص الإجابة عن هذه الشُّبهه ، فيما يلي:

١ — ماورد في هذا الموضوع من الأخبار مأخوذ من الإسرائيليات  
 ولم يثبت في هذا حديث عن رسول الله(عليه السلام)، يجب إتباعه، كما  
 صرَّح بذلك الحافظ ابن كثير، وغيره من المحققين، وقد تتبعْتُ  
 الأسانيد التي أوردها ابن جرير الطبري ، وغيره في هذه القصة، فوجدت  
 جميع الأسانيد مملوءة بالضعفاء والمتروكين ، وكلها أخبار موقوفة،

(١) الآيات من ٢١ — ٢٦ من سورة ص .

أو مقطوعة، أو مضطربة، ولم يرفع منه إلى النبي (ﷺ)، سوى حديث مروى، عن انس بن مالك (رضي الله عنه أنه سمع النبي (ﷺ) يقول: «إن داود النبي — عليه السلام — حين نظر إلى المرأة، همَّ بها؛ قطع على بنى إسرائيل بعثاً، وأوصى صاحب البعث، فقال: إذا حضر العدو، قُرب فلاناً وسمَّاه.

قال: فقَرَّ به بين يدي التابوت — قال: وكان ذلك التابوت، في ذلك الزمان يُسْتَنْصر به، فمن قُدِّم بين يدي التابوت، لم يرجع حتى يُقتل، أو ينهزم عنه الجيش، الذي يقاتله، فُقِّدَمَ فُقِّتِلَ زوج المرأة، ونزل المَلَكَانِ على داود فقصَّاً عليه القصة» (١).

وقد وجد في هذا الحديث ابن لهيعة، وهو ضعيف (٢).

وزيد الرقاشي، وهو ضعيف أيضاً؛ قال الحافظ ابن كثير بعد إيراده حديث أنس السابق — «لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي، وزيد وإن كان من الصالحين، لكنه ضعيف عند الأئمة» (٣).

وبالجملة: فإن هذه الأخبار لا تصح أن تكون أساساً للحكم، بصدور مثل تلك المخالفات من نبي الله داود (ﷺ)، وقد روى عن سعيد بن المسيب، أن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، قال: من حدَّثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين، وهو حدُّ الفرية على الأنبياء كما روى: أن القصة ذُكرت في مجلس عمر ابن عبد العزيز (رضي الله عنه)، وعنده رجل من أهل الحق، فكذب المحدث به وقال:

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ج ١٥ ص ١٦٧)، ونوادر الأصول للحكيم الترمذي، ص ١٨٦ ط دار صادر — بيروت.

(٢) انظر: تهذيب التهذيب (ج ٥ ص ٣٧٤، وما بعدها).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣١

إن كانت القصة على ما في كتاب الله، فما ينبغي أن يلتبس خلافها، وأعظم أن يقال: غير ذلك، وإن كانت على ما ذكرت وكَفَّ الله عنها سِتْرًا على نبيه، فما ينبغي إظهارها عليه، فقال عمر: «لسماعى هذا الكلام، أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس» (١).

٢ — ما ذكره في الآيات من الشبه غير مُسَلَّم به ، للأُمور التالية:  
أ — أن القصة ذكرت أن داود (عليه السلام) عمل على قتل أوريا، ليتزوج امرأته، والدخول في دم أوريا أعظم من التزوج بامرأته، فكيف ترك الله سبحانه الذنب الأعظم، وهو القتل، وعاتبه على الأخف؟!  
ب — أن السورة من أولها إلى آخرها، في مُحاجَّة منكرى النبوة، فكيف يلائمها القدح في بعض أكابر الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، بهذا الفسق القبيح (٢).

ج — أن الله سبحانه، وصف داود(عليه السلام) ، في ابتداء القصة بأوصاف حميدة، فقال تعالى: «... وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ، إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَّ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ، وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ» (٣).

وذكر هذه الأوصاف الحميدة، لايتناسب مع ما ذكره في القصة، فإنه يلزم من ذلك، أن يكون مساق الكلام، كمن يقول: فلان عظيم الدرجة في الدين، قوى الطاعة لرب العالمين يقتل ويذني، ويظلم الناس!!

ومن هذه الأوصاف ، قوله تعالى: « ذَا الْأَيْدِ ». والأيد: القوة، ولا شك أن المراد منه: القوة في الدين، لأن القوة في غير الدين، كانت موجودة في الملوك الكفار، وما استحقوا بها مدحاً.

(١) انظر : تفسير الرازي، ج ٧ ص ١٢٦ والكشاف ج ٤ ص ٦٢

(٢) انظر عصمة الأنبياء، للرازي، ص ٧٦ (٣) الآيات من ١٧ — ٢٠ سورة ص .



ومن الأوصاف الحميدة، قوله تعالى « وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ » .  
والحكمة: اسم جامع لكل ما ينبغي علماً وعملاً. فكيف يتناسب  
هذا، مع مزاحمته لأصحابه وأحبابه، في زوجاتهم؟!  
أما تعرّض داود(عليه السلام) للفتنة، وهى الابتلاء والاختبار، فإنه لا  
يلزم من ذلك وقوعه فى المعصية، وهذا يشبه قصة جريج العابد التى  
رواها البخارى ومسلم والإمام أحمد ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :  
قال رسول الله (ﷺ)، « لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة: عيسى بن مريم  
(عليهما السلام)، وصاحب جُريج، وكان جُريج رجلاً عابداً ، فاتخذ  
صومعة، فكان فيها فأتته أمه ، وهو يصلى، فقالت: يا جُريج ، فقال  
اللهم أمى وصلاتى، فأقبل على صلاته، فقالت — بعد ثالث يوم فى  
ثالث مرة — اللهم لا تُمِتَّهُ حتى ينظر فى وجوه المومسات، فتذاكر بنو  
إسرائيل جُريجاً وعبادته، وكان امرأةً بغىً يتمثل بها، فقالت: إن شئتم  
لأفتننه، فتعرضت له ، فلم يلتفت إليها، فأتت راعياً، كان يأوى إلى  
صومعته، فأمكنته من نفسها، فوقع عليها، فحملت، فلما ولدت ، قالت  
: هو من جُريج ، فأتوا به فأنزلوه من صومعته وهدموها، وجعلوا يضرّبونه،  
فقال: ما شأنكم؟. قالوا: زنيت بهذه البغى ، فولدت منك، فقال : أين  
الصبى؟ فجاءوا به، فقال: دعونى حتى أصلى، فصلّى، فلما انصرف،  
أتى بالصبى، فطعنه فى بطنه وقال : يا غلام، من أبوك؟ فقال : فلان  
الراعى فأقبلوا على جُريج يُقبّلونه، ويتمسّحون به، وقالوا: نبى صومعتك  
من ذهب قال: لا . أعيدوها من لَبِنٍ كما كانت ففعلوا .. الخ..» (١)

هكذا فتن جُريج، ولم يرتكب محظوراً ، سوى أنه تشاغل عن أمه  
بعبادته، فكذلك داود(عليه السلام) لم يرتكب محظوراً، عندما تعرض للابتلاء  
والاختبار، سوى أنه ورّع وقته على عبادة ربه، والقضاء بين خلقه،

(١) انظر صحيح البخارى ج ٢ ص ٢٥٤ .

واستمرَّ على هذه الحال، وفي ذات يوم تشاجر خصمان واستحكما بينهما النزاع، فلجأ إلى داود(عليه السلام)، للفصل بينهما بالحق، واتفق أن كان ذلك اليوم، يوم خَلْوَةٍ وعبادة، فحاولا الدخول عليه من الباب، فلم يتمكنوا، فتسلقا عليه السور، وهبطا عليه منه، فارتاع داود(عليه السلام) وظن بهما الظنون، فطمأناه، وفي هذا الجو الرهيب، بدأ أحدهما، يعرض قضيته، ويقص قصته، فقال: إن هذا أخى فى الدين، له تسع وتسعون نعجةً، ولى نعجة واحدة، طمع فيها وطلب منى أن يضمها إلى نعاجه، وجادلنى، فغلبنى فى المطالبة، بقوة بيانه وفصاحة لسانه، وبدأ داود(عليه السلام) بالحكم، ولم ينتظر كلام الخصم الآخر، فقال: «لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ». ثم لم يلبث أن عاد داود (عليه السلام) إلى أناته، فأدرك أنه كان عليه أن يفتح بابه للخصوم، ليحكم بينهم بالحق، حتى لا يشتطوا فى سلوكهم. لقد أغلق داود(عليه السلام) بابه، ولزم الخلوة والعبادة، فاضطر الخصوم إلى أن يتسلقوا عليه المحراب، ففزع منهم. وفى ساعة الفزع، سمع لأحدهم، ثم حكم له قبل أن يسمع كلام الآخر.

إنها فتنة وابتلاء، لقد كانت الخلوة عن الناس فى عبادة الله تعالى، محببة إلى نفس داود (عليه السلام)، يهدأ فيها ويستريح، فكان له فيها هوى ورغبة، فنهاه الله تعالى عن ذلك بقوله: «وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ». ذلك أن وقت الحكام والملوك ليس لهم، بل هو لرعاياهم، ليحكموا بينهم بالعدل، ولهذا قال الله تعالى: «يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ..» الآية.

ومن هنا أدرك داود (عليه السلام) ما كان ينبغى له أن يفعله، «فاستغفر ربه وخرَّ راكعاً وأناب». ولقد زكاه الله تعالى، فقال جل شأنه: «وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ».

هذا هو الذى ترشد إليه آيات القرآن الكريم، فأما تحريف كلام الله عن مواضعه، والخروج به عن معناه العربى المبين، إلى تأويلات بعيدة، فتلك مصادمة للحقائق العلمية، ومعارضة للنصوص، لا يمكن قبولها.

قال الإمام أبو محمد ابن حزم — بعد أن ساق الآيات السابقة فى شأن داود عليه السلام — : «وهذا قول صادق صحيح، لا يدل على شئ مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود، وإنما كان ذلك الخصم، قوماً من بنى آدم بلا شك مختصمين فى نجاج من الغنم، على الحقيقة بينهم، بغى أحدهما على الآخر، على نص الآية، ومن قال: إنهم ملائكة مُعَرِّضِينَ بأمر النساء، فقد كذب على الله، وقال على الله ما لم يقل، وزاد فى القرآن ما ليس فيه، وأقر على نفسه الخيبة، أنه كَذَّبَ الله والملائكة، لأن الله تعالى يقول: «وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ». فقال هو: لم يكونوا قط خصمين، ولا بَغَى بعضهما على بعض، ولا كان قط لأحدهم تسع وتسعون نعجة، ولا كان للآخر نعجة واحدة، ولا قال: أكفلنيها، فاعجبوا لما يُقْحِمُ فيه أهل الباطل أنفسهم، نعوذ بالله من الخذلان» (١).

والغريب أن معظم المفسرين، نقل كثيراً من الأخبار الإسرائيلية دون تمحيص، وربما نشأ الخطأ من قبول بعض الصحابة والتابعين لهذه الأخبار، بغية الاطلاع على أخبار أهل الكتاب، لأن الإنسان بطبعه تَوَّاق إلى معرفة أخبار الماضين واستقصاء قصصهم، لاسيما بعد أن أذِنَ النَبِيُّ (ﷺ) بالتحديث عن بنى إسرائيل، حيث قال (ﷺ): «حَدَّثُوا عن بنى إسرائيل ولا حرج.» (٢).

(١) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ج ٤ ص ١٨ ط التمدن.

(٢) انظر صفحة ١١٨ من هذا الكتاب.

ويعرض العلامة ابن خلدون في مقدمته تحليلاً ، لانتشار هذه الأخبار الإسرائيلية، فيقول: « إن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البدأة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شئ مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدون منهم، وهم أهل التوراة من اليهود، ومن تبع دينهم من النصارى وأهل التوراة الذين هم بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك، إلا ما عرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم ، مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها، فامتلات التفاسير من المنقولات عنهم، ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلون، لكنها تُلقيت بالقبول، لما كانوا عليه من المقامات في الدين ، والملة.» (١)

وبالجملة: فإنه يجب أن تصان كرامة الأنبياء عن اللغو الذي لا خير فيه، وأن تبرأ ساحاتهم، مما يتناقله الإخباريون على مرّ العصور، ونكتفى بالقدر الذي دلت عليه نصوص القرآن الكريم، والسنة الصحيحة المطهرة.

وبعد: فقد بذلت في هذا البحث جهداً متواضعاً، أرجو أن يكون بداية لبحوث أخرى، تعالج ما وقع فيه المفسرون من هفوات، وما أثاره المستشرقون من شبهة، وما تقدموا به من مطاعن موجهة إلى الإسلام. وفيما يلي نوجز النتائج التالية:

١ — اتضح لنا من خلال هذه الدراسة، لزواج النبي (ﷺ) بزینب بنت جحش، أن بواعث هذا الزواج، كانت حكماً تشريعية، أرادها الله تعالى، ووجه إليها نبيه (ﷺ)، ولهذا تولى الله تعالى هذا الزواج، من

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٧٨٦

فوق سبع سموات، كما قال تعالى « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا ».

ولم يسبق هذا الزواج ، أى ميل قلبي نشأ عن رؤية النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لزَيْنَب ، وهى فى عصمة زيد، كما أثاره القصاصون، وتناقله الرواة جيلاً بعد جيل.

٢ — أن الأخبار الإسرائيلية، قد تسربت إلى كتب التفسير والسِّير، ونتج عنها مخاطر جسيمة أحدثت بلبلة فى الفكر الإسلامى الصحيح، واتخذ أعداء الإسلام منها أسلحة للظعن فى دين الإسلام، من واقع مصادره، وعن طريق أبنائه.

وطريقة الخلاص من ذلك أن تنشط الحركة الإسلامية الواعية، وتقوم نخبة ممتازة، من كبار علماء المسلمين بتتبع تلك الآثار فى مظانها ولا سيما ما يتعلق بالعقائد ، ثم يجرى التنبيه عليها فى أماكنها بأنها أخبار إسرائيلية، لا يعتمد عليها فى شئ.

وكل مصدر من مصادر التفسير أو السِّير، يجرى طبعه مستقبلاً، يجب أن يكون مشتملاً على تلك التنبهات التى وضعها العلماء المتخصصون، وتلك مسئولية كبرى تقع على عاتق علماء الإسلام.

٣ — أن الأئمة الأعلام ، كابن جرير الطبرى، وابن سعد، وغيرهم وإن كانوا أئمة كباراً فى العلم والمعرفة، إلا أنهم تساهلوا فى نقل بعض الأخبار الإسرائيلية، ودونوها فى كتبهم، ولم يحكموا على أسانيد تلك الروايات بالصحة أو الفساد، بل تركوا لغيرهم فرصة لتمحيص هذه الأخبار ونقدها، بمقتضى قواعد الجرح والتعديل ، وهذا لا يقدح فى مكانتهم العلمية، لأنهم نقلوا هذه الأخبار حسب ما شاع عند بعض الإخباريين وأهل القصص فى زمانهم، وفرق بين نقل الخبر كما سمعه وبين اعتقاد صحته، وخطاؤهم الوحيد هو إدخال هذه الأخبار فى

كتبهم دون تمحيص خلافاً لما عرف عنهم من الدقة والتحقيق في المجالات الأخرى.

٤ — أن قصة داود (عليه السلام) مع زوجة أوريا الحثي، قصة خرافية ولدها اليهود، ورؤجها القصاصون والمغرضون، حتى أصبحت منتشرة في المصادر التاريخية، ولم تسلم منها كتب التراث الإسلامي، الأمر الذي جعل كثيراً من أبناء الإسلام، يقرؤون هذه القصة، على أنها حقيقة مُسلمة . وفي هذا خطر كبير، وتشويه للحقائق التاريخية، التي تدل على عصمة الأنبياء وطهارة نفوسهم وعلو مقاماتهم. وقد اتضح من خلال هذا البحث، أن الآيات الكريمة والسنة الصحيحة، لاتدل على شئ من هذه المفتريات الموجهة إلى داود(عليه السلام).

هذا، وقد بذلت في هذا البحث جهداً متواضعاً حاولت فيه الوصول إلى الحقيقة، وأرجو الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، فهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

د/ زاهر بن عواض الألمعي

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الرياض



## المراجع

أولا — كتب التفسير وعلوم القرآن

- ١ — تفسير الطبرى . ط مصطفى البابى الحلبي ١٣٧٣هـ.
- ٢ — الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي . ط دار الكتب المصرية.
- ٣ — تفسير الفخر الرازى. ط عبد الرحمن محمد بالصنادقية القاهرة.
- ٤ — تفسير الألوسى. ط إدارة الطباعة المنيرية القاهرة.
- ٥ — زاد المسير لابن الجوزى. ط المكتب الإسلامى دمشق.
- ٦ — محاسن التأويل للقاسمى. ط عيسى البابى الحلبي القاهرة.
- ٧ — الكشاف للزمخشري. ط التجارية بالقاهرة.
- ٨ — تفسير الحافظ ابن كثير.
- ٩ — تفسير البغوى.
- ١٠ — تفسير الخازن.
- ١١ — فى ظلال القرآن . سيد قطب.
- ١٢ — أضواء البيان للشنقيطى . ط المدنى بالقاهرة.
- ١٣ — الجواهر الحسان فى تفسير القرآن . عبد الرحمن الثعالبي . ط الجزائر ١٣٢٥هـ.
- ١٤ — تفسير البقاعى. مخطوط فى مكتبة الأزهر.
- ١٥ — أحكام القرآن لابن العربى. ط عيسى البابى الحلبي.
- ١٦ — تفسير سورة الفاتحة . محمد عبده.
- ١٧ — طبقات المفسرين للداودى، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.
- ١٨ — مدخل إلى القرآن الكريم. الدكتور محمد عبد الله دراز . ط دار البيان بالكويت.



## ثانياً — الحديث وعلومه

- ١٩ — صحيح البخارى.  
٢٠ — صحيح مسلم.  
٢١ — سنن الترمذى.  
٢٢ — مسند الإمام أحمد . ط الحلبي بالقاهرة.  
٢٣ — نوادير الأصول للحكيم الترمذى . تصوير دار صادر بيروت عن الطبعة الأولى.  
٢٤ — فتح البارى لابن حجر. ط السلفية بالقاهرة، ودار المعرفة بيروت.  
٢٥ — فيض القدير للمناوى . ط المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة.  
٢٦ — تهذيب التهذيب لابن حجر. ط الهند.  
٢٧ — تقريب التهذيب لابن حجر، نشر النمىكانى بالمدينة المنورة.  
٢٨ — ميزان الاعتدال للذهبى . ط عيسى البابى الحلبي.  
٢٩ — منهج السنة فى الزواج، الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، ط دار النصر للطباعة القاهرة.

## ثالثاً — كتب السير والتاريخ

- ٣٠ — تاريخ الطبرى.  
٣١ — الطبقات الكبرى لابن سعد، ط دار صادر بيروت.  
٣٢ — البداية والنهاية لابن كثير. ط مكتبة المعارف. بيروت ١٩٦٦  
٣٣ — الإصابة فى تمييز أسماء الصحابة . المكتبة التجارية الكبرى لصاحبها مصطفى محمد . القاهرة ١٩٥٨م.  
٣٤ — السيرة النبوية لابن هشام. طبع مصطفى البابى الحلبي . القاهرة.  
٣٥ — السيرة النبوية لابن كثير . ط عيسى البابى الحلبي.

- ٣٦— الروض الأنف للسهيلي. ط الأول بالجمالية القاهرة.
- ٣٧— حلية الأولياء، لأبي نعيم. ط السعادة بالقاهرة. مكتبة الخانجي.
- ٣٨— السمط الثمين فى مناقب أمهات المؤمنين، لمحّب الدين الطبرى. ط حلب.
- ٣٩— مقدمة ابن خلدون.
- ٤٠— زاد المعاد لابن قيم الجوزية. ط أنصار السنة المحمدية بالقاهرة.
- ٤١— فقه السيرة. محمد الغزالي. ط السعادة بالقاهرة ١٣٨٤هـ.
- ٤٢— الشفا للقاضى عياض.
- ٤٣— محمد رسول الله. محمد رضا. ط دار الكتب العلمية. بيروت.
- ٤٤— حضارة العرب. غوستاف لوبون. ترجمة عادل زعيتر. عيسى الحلبي.
- ٤٥— حياة محمد. إميل درمنغم. ط عيسى البابى الحلبي القاهرة.
- ٤٦— محمد فى المدينة. مونتجومرى وات ترجمة شعبان بركات.
- ٤٧— تراث الإسلام. تأليف جمهرة من المستشرقين. ط بيروت.

#### رابعاً — مراجع إسلامية متنوعة

- ٤٨ — نساء النبى بنت الشاطئى الدكتورة عائشة عبد الرحمن.
- ٤٩ — الجواب الكافى. لابن قيم الجوزية. ط أنصار السنة المحمدية. القاهرة.
- ٥٠ — عصمة الأنبياء للرازى، ط ضمن سلسلة الثقافة الإسلامية التى يصدرها محمد السمان.

- ٥١- الفصل فى الملل والنحل لابن حزم . ط التمدن ١٣٢١هـ .  
القاهرة.
- ٥٢- نداء إلى الجنس اللطيف . محمد رشيد رضا . ط المكتب  
الإسلامى بيروت.
- ٥٣- كبرى اليقينيّات . سعيد رمضان البوطى .
- ٥٤- لماذا عدد النبى زوجاته . الدكتور أحمد الحوفى .
- ٥٥- تعدد الزوجات فى الإسلام . عبد الله علوان .
- ٥٦- تعدد زوجات الرسول . محمد على الصابونى .
- ٥٧- الكتاب المقدس (العهد القديم) .
- ٥٨- مجلة لواء الإسلام - السنة (٥) ، العدد (٨) ، مقال لأبى زهرة  
بعنوان . مناهج التفسير .

#### خامساً - فى اللغة

- ٥٩- القاموس المحيط للفيروزابادى .
- ٦٠- النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ط عيسى البابى الحلبي .

#### سادساً - فى البلدان

- ٦١- معجم البلدان . ياقوت الحموى .

## فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة.....	٥
زواج النبى (ﷺ) بزینب — بإيجاز — فى صورته الصحیحة.....	٩
أخطاء بعض المفسرين فى زواج النبى (ﷺ) بزینب.....	١٠
نقد الروایات التى أوردها ابن جریر الطبرى، وابن سعد.....	١٤
نقد روايات ابن جریر الطبرى.....	١٤
نقد روايات ابن سعد.....	١٩
استغلال بعض المستشرقین لهذا.....	٢٢
كيف أدخلت هذه الأخبار المدسوسة فى التراث الإسلامى.....	٢٧
یوحنا الدمشقى.....	٢٩
تنبه المحققین من علماء الإسلام لهذه الأخبار الدخيلة.....	٣٢
الاتجاهات الفكرية التى أثرت حول زواج النبى (ﷺ) بزینب.....	٣٤
الاتجاه السلبى أمام هذه الأخبار.....	٤٠
الاتجاه التحقیقى.....	٤٣
نسب زید بن حارثة.....	٤٤
زید بن حارثة.....	٤٧
زید فى بیت محمد (ﷺ).....	٥٢
إسلام زید.....	٥٣
ظاهرة التبنى فى الجاهلیة.....	٥٥
مراحل إلغاء التبنى.....	٥٦

- ٥٨..... ترجمة زينب بنت جحش
- ٦١..... زواج زيد بن زينب، أغراضه وأهدافه.
- ٦٥..... زواج النبي (ﷺ) زينب بنت جحش
- ٦٦..... الحكمة في زواج النبي (ﷺ) زينب
- ٦٩..... خطبة النبي (ﷺ) زينب لنفسه.
- ٧٠..... لماذا اختار رسول الله (ﷺ)، زيدا وسيطاً في خطبة زينب؟
- ٧٠..... كيف تم زواج النبي (ﷺ) زينب؟
- ٧١..... متى كان زواج النبي (ﷺ) زينب؟
- ٧٢..... الشبهات التي أثرت حول زواج النبي (ﷺ) زينب، والرد عليها....
- ٧٩..... منشأ الخطأ في تأويل متعلق الخشية.
- ٩١..... تعدد زوجات النبي (ﷺ)
- ٩٢..... سودة بنت زمعة.....
- ٩٢..... عائشة بنت أبي بكر الصديق.....
- ٩٣..... حفصة بنت عمر بن الخطاب.....
- ٩٤..... زينب بنت خزيمة.....
- ٩٤..... زينب بنت جحش.....
- ٩٤..... أم سلمة هند بنت أمية.....
- ٩٥..... أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان.....
- ٩٥..... جويرية بنت الحارث.....
- ٩٥..... صفية بنت حيي بن أخطب.....
- ٩٦..... ميمونة بنت الحارث الهلالية.....
- ٩٩..... عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.....
- ١٠٣..... نماذج من الاعتراضات على عصمة الأنبياء والرد عليها.....
- ١٠٦..... الشبهات التي وردت في حق داود عليه السلام والرد عليها.....
- ١٠٧..... قصة داود عليه السلام مع زوجة أوريا الحثي.....

١١٠.....	تلخيص الشبه في قصة داود.....
١١١.....	تلخيص الإجابة عن هذه الشبه.....
١١٧.....	نتائج البحث.....
١٢١.....	المراجع.....
١٢٥.....	فهرس الموضوعات.....

## صاحب الكتاب

- ولد بمنطقة رجال ألع من المملكة العربية السعودية سنة ١٣٥٤هـ.
  - التحق بالخدمة العسكرية بمنطقة جيزان عام ١٣٧٠هـ ودرس على بعض أشياخها في أوقات فراغه.
  - استقال من الخدمة عام ١٣٧٦هـ ليتفرغ للدراسة.
  - انتظم بمعهد شقراء العلمي عام ١٣٧٧هـ وتخرج منه ملتحقاً بكلية الشريعة في الرياض.
  - في سنة ١٣٨٣هـ وقبل تخرجه من الكلية انتدب للتدريس بمعهد أيها العلمي.
  - رشح مديراً لمعهد نجران العلمي عام ١٣٨٥هـ.
  - حصل على الشهادة الجامعية [الليسانس] من كلية الشريعة بالرياض عام ١٣٨٦هـ.
  - انتسب للدراسات العليا بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر وحصل على الماجستير في التفسير وعلوم القرآن عام ١٣٨٩هـ.
  - انتقل إلى كلية الشريعة مدرساً عام ١٣٩١ - ١٣٩٢هـ.
  - حصل على الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن من جامعة الأزهر، وموضوع رسالته [مناهج الجدل في القرآن الكريم] عام ١٣٩٣هـ.
  - عمل عميداً لشؤون المكتبات بجامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية.
  - صدر له المؤلفات التالية:
  - ١ - الأمليات (ديوان شعر).
  - ٢ - مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزینب.
  - ٣ - مناهج الجدل في القرآن الكريم.
  - ٤ - تحقيق كتاب استخراج الجدل من القرآن لابن الحنبلي.
  - ٥ - على درب الجهاد (ديوان شعر).
  - ٦ - رحلة الثلاثين عاماً ، سيرة ذاتية.
- له مؤلفات تحت الاعداد والطبع منها:-

- ١ - مدارس التفسير في عهد الصحابة والتابعين وأشهر رجالها.
- ٢ - أصحاب الأخدود في ضوء القرآن والسنة والتاريخ.
- له اهتمامات بالدراسات الإسلامية والأدبية.
- ساهم في كثير من المؤتمرات داخل المملكة وخارجها.
- القى عدداً من المحاضرات والأمسيات الشعرية.